فى ربوع الأزبكية

بقلم



محمد سيد كيلانى

في
ربوع الأزبكية

دراسة

أدبية ، تاريخية ، اجتماعية

تأليف

هدية من الفنان التشكيلي

محمد سيد كيلاني

ماجستير من كلية الآداب بجامعة القاهرة

الطبعة الأولى

١٩٥٨ — ١٩٥٩

الناشر :

دار العرب

تأسست ١٩٠٠ م

للبستاني

٢٨ شارع الفجالة - القاهرة

ت ٥٦٠٢٥

إهـداء الـكتاب

إلى الأستاذ يوسف السباعي

يا يوسف بنَ أبي السِّباعِ هديةً ... يا كاتِبــاً كالـكوكبِ الوهَّاجِ
صَعبُ الشَّكيمةِ لا تلينُ لحاقدٍ ... أو حاسِدٍ ، أو ناقِمٍ ، أو هاجِي
أُهديكَ دُنيا الأزبكيَّةِ صُغتُها ... مِنْ عالَمِ التــاريخِ كالدِّيباجِ
ضمَّنتُها القولَ الصَّريحَ وما أرى ... في الحقِّ مِن لَوْمٍ ولا إحراجِ
لا يَهرُبَنَّ من الحقيقةِ عاقِلٌ ... فإذا هَرَبْتَ أخي فلَستَ بِناجِي

* * *

ومرابعٍ للفَنِّ كانت مَصدراً ... للنُّورِ في وَسَطِ الظلامِ السَّاجِي
وَطرَقتُ بابَ اللَّهوِ غيرَ مُقصِّرٍ ... مُستَرسِلاً في الطَّرْقِ والإيلاجِ
فإذا رَجوتُ مِنَ الإلهِ هِدايَةً ... وَرِعايَةً فأنا الضَّعيفُ الرَّاجِي

* * *

لُعِنَ الحكيمُ وَضَلَّ عنه صوابُهُ ... وانْدَاسَ بَيْنَ مجاهِلٍ وفِجاجِ
في سَكْرَةِ الموتِ التي تنتاشُه ... عَزَّ الدواءُ ولاتَ حينَ عِلاجِ
وَيلٌ له من كاتبٍ مُتَخاذِلٍ ... يَغتالُ مَنْ سَبقُوهُ في الإنتاجِ
في بيتِ عالِمَةِ العوالِمِ شَأنُه ... يَنسابُ بَيْنَ تَراقُصٍ وغناجِ
وَلِخِزيِهِ حِيناً وفَرطِ قصورِه ... يَنْزاحُ في عالٍ مِنَ الأبراجِ

* * *

أدَّبْتَ توفيقَ الحكيمِ بهمَّةٍ ... شَمَّاءَ قد أَرْبَتْ عَلَى الكُرباجِ
فَتَرَكْتَهُ مُتَضَرِّجاً بِدموعِهِ ... ودِمائِهِ في الصُّبحِ والإدلاجِ
يا يوسفَ بنَ أبي السِّباعِ تحيةً ... يا صادِقاً في القولِ والمِنهاجِ

محمد سيد كيلاني

كلمة النـاشر

قرأت كتاب « فى ربوع الأزبكية » فأعجبنى ما جاء به من معلومات وقررت أن أنشره فورا .

عزيزى القارىء .

ليس عندى أدنى شك فى أنك تقرأ هذا الكتاب لغير سبب الإحاطة بجزء من ثقافة وتاريخ أحد أحياء القاهرة ، عاصمة المعز .

فتاريخ « الأزبكية »[1] منذ الاحتـــلال العثمانى إلى الحملة الفرنسية . . . إلى محمد على حتى بزوغ نجم خالد الذكر نجيب الريحانى . . . ملىء بالعبر من أدب وملح .

وحياة الناس هى عبرة التاريخ . لأن حياتهم فيها ارتفاعهم وانحطاطهم ، مجدهم وبؤسهم ، قوتهم وضعفهم .

إن حى « الأزبكية » لعب دوراً كبيراً فى حياة كثيرين من رواد نهضتنا الأدبية والفكرية من مستهل القرن السادس عشر إلى يومنا هذا .

لقد كانت هناك ندوات أدبية حول ضفاف بركة « الأزبكية » ولقد اتخذ المماليك ومن بعدهم نابليون بونابرت وعلية القـــوم وسراتهم منها مركزاً لنشاطهم السياسى والاقتصـــادى . فماذا حل بعد ذلك وأدى « بوش البركة » لتصبح بؤرة البغاء وملجأ الفساد والرذيلة . . ؟؟!!

---

(١) يطلق على هذا الحى « وش البركة » أو « وجه البركة » .

هذا ماسيكشف عنه بحثنا ..... فإن كنت يا أخى تبحث عن متعة لاتمت العلم والتاريخ بصلة، فالأجدر بك ألا تقرأ هذا الكتاب لأنه لن يفيدك فى شىء !!

فإن محاولتنا إخراج بحث عن هذا الحى ماهى إلا وسيلة من وسائل البحث والتنقيب عن تاريخ كل حى بل كل شارع أو زقاق من أزقة عاصمتنا الحبيبة التى شهدت ارتفاع العمالقة وانحدار الأقزام .

أرجو أن أكون قد وفقت بعض الشىء ، والحكم أولا وآخرا لك أنت يا عزيزى القارىء ؟

الناشر

صلاح الدين البستانى

مقـــدمة

إن تاريخ وجه البركة جدير بالعناية ، وخليق بالبحث والدرس . ففى تلك الجهة سكن كثير من عظماء مصر ، أمثال الشيخ عبدالله الشبراوى ، والشيخ محمد المهدى ، وكان كل منهما شيخاً للأزهر فى عصره . وسكن الأمير كتخدا رضوان الجلفى فى قصر ضخم فخم ، كان منتدى للشعراء ، وكعبة للأدباء ، يفدون عليه من كل صوب فيغمرهم بكرمه وعطفه .

وفى وجه البركة سكن البكريون الذين فتحوا قصورهم للوافدين عليهم من رجال الأدب والعلم ، فلهجت بمدحهم الركبان ، وسار ذكرهم فى كل مكان .

وفى وجه البركة يقيم خلفاء مرقص الرسول . وسكن هذا الحى كثير من عظماء القبط ، أمثال إبراهيم الجوهرى رئيس كتاب مصر فى زمنه ، وأخيه جرجس . والمعلم يعقوب القبطى الذى انضم إلى الفرنسيين وحارب فى صفوفهم ضد العثمانيين ، وقد عرف باسم « الجنرال يعقوب » .

وفى وجه البركة سكنت عائلات عريقة ، أمثال عائلة الشرايبى . وعميد هذه الأسرة ، هو الذى بنى جامع الشرايبى الكائن بشارع الرويعى ، والذى يطلق عليه حالياً اسم « جامع البكرى » وسكن فيها شيخ تجار مصر فى القرن العاشر الهجرى ، السيد أحمد الرويعى ، وبنى مسجده المعروف ، وضريحه الذى دفن فيه .

* * *

وكانت ناحية وجه البركة بمقاهيها ومغانيها ، ومراقصها وملاهيها ، وحاناتها وغوازيها ، وحدائقهـا وبساتينها ، وأشجارها وأطيارها ، مسرحا لأدباء مصر فى العصر العثمانى وبعد العصر العثمانى. كان الأدباء يقضون أوقاتهم على الحشيش الأخضر تحت ظلال الأشجار، وعلى حافات الجداول المنسابة بالماء الفضى، والتى تبدو كالسيوف فوق الأبسطة الخضراء . أو يمضون الليالى فى « الصالونات » الأدبية بقصور الأمراء والأعيان المطلة على البركة . أوفى المقاهى والمغانى . أو فى الحمامات الكثيرة المنتشرة بناحية الرويعى وقنطرة الدكة إن كان الوقت شتاء . وقد ترك هؤلاء الأدباء إنتاجا انعكست فيه أصداء هذه البيئة بما فيها من جمال الطبيعة وجمال الإنسان ، وما فيها من فسق وخلاعة وفجور . وهذا الأدب يســتحق الدراسة لأنه من وحى الفن للفن . وإنك لتحس وأنت تتأمل فى هذا الأدب بأن أصحابه قد اندمجوا فى هـذه البيئة اندماجا تاما ، وارتموا بين أحضـــان الطبيعة بعد أن أسكرتهم نشوتها ، وأثملتهم خمرتهـا .

وفى وجه البركة نما الأدب الشعبى وترعرع على أيدى القصـــاص وطبقة «الأدباتية» ، وعلى أيدى المغنين والممثلين. ووجدت الفنون الشعبية كالرقص وخيال الظل وألعاب المهارة ، مجالا خصبـاً فى هذه البيئة . وازدهرت الفنون القبطية والآداب المسيحية .

أما بعد ، فإنى لا أدعى أنى وفيت الموضوع حقه ، أو أحطت به من جميع نواحيه . وكل ما يمـكن أن أقوله إنى بدأت محاولة فى دراسة وجه البركة دراسة أدبية اجتماعية تاريخية متوخياً الإيجاز .

القاهرة فى أول أغسطس سنة ١٩٥٨

محمد سيد كيلانى

وجـــه البركة

فى العصر العـــثمانى (١٥١٧ — ١٨٠٥ م)

الأرض الممتدة من محطة قنطرة الليمون إلى مسجد الـكخيا . ومن مسجد الـكخيا إلى أول شارع القلمة مارة بشارع عبدالعزيز . ومن أول شـارع القلمة تسير إلي أول شارع الأزهر فأول شارع الجيش «فاروق» ثم تتجه إلى محطة قنطرة الليمون . هذه المساحة يطلق عليها اسم « وش البركة » . وهى موضوع دراستنا .

وجزء من هذه المساحة يمتد من محطة قنطرة الليمون إلى شارع قنطرة الدكة كان يسـمى عند دخول العرب مصر قرية « أم دنين » . وقد أطلق العرب عليها اسم « المقس » أو « المقسم » لأنهم قسموا فيها الغنائم .

كانت هذه الأرض بعد الفتح الإسـلامى ، قد أهمل أمرها تماما . وذلك لأن حركة العمران قد انتقلت إلى الفسطاط التى أصبحت عاصمة البلاد ، ومقراً للوالى ولمن معه من الموظفين والجند .

وظل أمر هذه البقعة فى طى الإهمال حتى جاء الخليفة الفـــاطمى الظافر سنة ٤٤٠ هـ (حوالى سنة ١٠٢٠ م) فشيد فى ناحية قنطرة الليمون قصراً فخماً يدعى « قصر اللؤلؤة » وله منظرة جميلة يجلس فيها الخليفة حينما يريد ، تسمى « منظرة اللؤلؤة» . وقد أصدر الظافر أمره بحفر بركة متسعة تمتد إلى قرب منظرة اللؤلؤة . فاشتغل العمال ليل نهار حتى تم حفرها فى مدة وجيزة ، وأدخل إليها الماء عن طريق الخليج الناصرى . وقد أطلق عليها اسم « بركة بطن البقرة » .

وبعد زوال الدولة الفاطمية ، أخذ أمر البركة يتلاشى يوما بعد يوم فتراكمت فيها الأتربة حتى انسدت ، وكاد أثرها يختفى من الوجود تماما .

وفى [1] سنة ٨٨١ هـ (حوالى ١٤٦٠ م) قيض الله للبركة أميراً هماما ، وقائداً شجاعا ، ومحارباً مغواراً ، هو الأمير أزبك الخازندار .

كان أزبك قد أمضى شطراً كبيراً من حياته فى الكفاح والنضال ، والطعان والقتال ، وجمع ثروة طائلة . فأراد أن يركن إلى الراحة ، ويخلد إلى الهدوء والسكينة ، ويتمتع باللهو والسرور .

ففكر أول ما فكر فى أن يبنى له قصراً ضخماً فخماً يجمع كل وسائل الترف والنعيم التى عرفت فى عصره . وقد وقع اختيـاره على بركة بطن البقرة التى قدر لها أن تحمل اسمه فيما بعد .

وكانت هذه البركة كما ذكرنا قد أصبحت أثراً بعد عين . فأعاد أزبك حفرها وعمقها وبنى حولها رصيفاً من الحجر ليحميها من تساقط التراب والأحجار فيها ، وليتخذ الناس هذا الرصيف (الكورنيش) للنزهة . واستحضر عدداً عظيماً من العمال ، وكلفهم بنقل الأتربة التى كانت تشغل مساحات واسعة حول البركة . فاشتغلوا بهمة لاتعرف الكلل حتى أزالوا تلال التراب والقاذورات .

وبعد أن مهدوا الأرض ونظفوها ، غرسوا فيها الأشجار من مختلف الأنواع ، والورود المتباينة الألوان . وشيد الأمير لنفسة قصراً تجرى من تحته الأنهـار . كان آية فى الجمال والروعة ، وتحفة نادرة المثال فى نقشه وزخرفته . بلطت أرضـه بالرخام الملون ، وشيدت فيه النافورات البديعة . وطليت جدرانه بالأدهان الزاهية الألوان ، ونقشت بماء الذهب والفضة ، وفرش بأفخر أنواع الرياش ، وعلق بسقفه عدد من القناديل .

---

(١) ابن إياس ، والخطط التوفيقية .

وبنى أزبك بجوار قصره هذا ، مساكن لأتباعه وخدمه وعبيده . كما شيد مسجداً وصفه المؤرخون بأنه بلغ النهاية فى الجمال والفخامة . وهو المسجد الذى يطلق عليه الآن «مسجد أولاد عنان»(١) وشيد عدداً من الحمامات والمخابز والمخازن والقياسر والترابيع والاصطبلات .

وأقبل الأعيان والأمراء من كل صوب على البناء فى هذه البقعة الجميلة ، حتى نشأت فى مدة وجيزة مدينة قائمة بذاتها .

وكانت بركة الأزبكية تستمد مياهها — كما ذكرنا — من النيل عن طريق الخليج الناصرى . لذلك عرف الجزء المواجه لبـاب الحديد باسم « وجه البركة » ولـكنه أطلق على الناحية كلها . وكان بالقرب من الرويعى أرض متسعة فضـاء يحرق فيها الجير . والمصريون يطلقون على الأرض الفضـــاء اسم « وسعة » أو « ساحة » أو « رحبة » ولذلك أطلقوا على وجه البركة اسم « وسعة الجير » ثم حذفوا كلمة الجير وقالوا « الوسعة » .

فأصبحت « الأزبكية » و « وجه البركة » و « الوسعة » أسماء ثلاثة لمعنى واحد ولجهة واحدة .



وبعد أن فرغ الأمير أزبك من هذه المهمة ، شرع يفـكر فى خلق المناسبات لإقامة معالم الأفراح والليالى الملاح حتى يأخذ بحظ من اللذات .

فاخترع احتفالا سماه « احتفال فتح البركة » . فحينما يرتفع النيل ، يفتح السد المقام عند مدخل البركة على الخليج الناصرى فتتدفق المياه إليها .

وجعل هذه المناسبة احتفالا سنويا عظيما وعيدا كبيرا يشبه عيد وفاء النيل .

(١) جهة باب الحديد أو (ميدان رمسيس) .

فكان يدعو إليه الأمراء والأعيان ، وينصب لهم الصواوين الفاخرة ، ويقدم لهم موائد الطعام وعليها كل ما لذ وطاب . وبعد الأكل يجلس أزبك مع ضيوفه يستمعون إلى غناء المغنيات ، ويشاهدون الرقص المصحوب بالطبل والزمر . وهكذا يقضون ليلة أو أكثر فى بهجة وسرور ، وانشراح وحبور .

وكان العامة يشاركون الأمير فى هذه المناسبة . فيحملون طعامهم وشرابهم ، ويتخذون أماكنهم بين الأشجار وعلى شواطىء البركة . وكانت هذه الاجتماعات فرصة لارتكاب المعاصى على اختلاف أنواعها من سكر وعربدة ولعب ميسر ، واختلاط جنسى طبيعى وغير طبيعى .

* * *

إلا أن هذه المناسبات — أى مناسبات العربدة — كانت قليلة على شواطىء بركة الأزبكية ، فى حين أن بركة الرطلى كانت المحل الرسمى للبغاء ، والبؤرة المختارة للدعارة ، وكعبة الحشاشين والفسقة ، إليها يشدون رحالهم من كل ناحية من نواحى العاصمة . ولم يمنع هذا بعض فقهاء المسلمين من السكنى على شواطئها كشيخ الإسلام ابن حجر العسقلانى ، وقاضى القضاة ابن الجيعان ، والدشطوطى ، وجلال الدين البكرى وغيرهم ممن لا يحصيهم العد .

وقد حدث أن بعض نساء السلطان الغورى ذهبن إلى بركة الرطلى وعربدن وارتكبن المعاصى . فأصدر السلطان أمره بإزالة المبانى القائمة حول بركة الرطلى وحرم السكنى فى تلك الجهة . فآل أمرها إلى الخراب . وقد رثاها أحد شعراء ذلك العصر بقصيدة طويلة نذكر منها :

عَلى[1] بركةِ الرطلىِّ نوحوا وعدِّدُوا   لمَا حلَّ فيها من نَكالٍ ومن خُسرِ
وكان بها السكيرُ فى غايةِ المنا   يدير كؤوسَ الراحِ فى ليلةِ البدرِ

(١) ابن إياس : ج ٥ ص ١٠

وكان بها الحشــاشُ يمرحُ بهجةً ... فقد قطعوا لذاته صارَ فى فــكرِ
وكانَ بهـا للراكبين مراكب ... مُسَــتَّرَةٌ فيهـا وأخرى بلا سترِ
وكم داخل فيها مُغَنٍّ ومنشدٌ ... بنغمته كم من خفيفٍ ومنْ شعرِ
وكم آلةٍ للمطربينَ عهدتُهـــا ... وَجَنْـك وعوّاد يغرّد كالقُـمْرى
وقد دَرَست تلك المعاهد كلُّها ... وناحتْ بها الغربانُ والبومُ فى الوَكْرِ
وشقّ شقيقُ الدَّوْحِ فيها ثيابَه ... وألقى غُصَيْنُ الدَّوح مافيه من زَهرِ
وقد لَبس الشُّحرورُ سودَ ثيابِه ... وأبدا خريرَ الماء لطمٌ من النهرِ
وسالت دموعُ السحب من أعين السما ... وصار ضياءُ الصبح كالليل إذْ يَسري
وقد كُسِفَت شمسُ الضُّحَى فى سمائِها ... وأظلمَ نورُ البدرِ فى الخَسفِ للفجر
فيا مُقْلَتِى جُودِى بدمعى تحسُّراً ... ويا مُهجَتِى صَبْراً وناهيك بالصَّبر
رعى الله أياماً تَقَضَّت بطيبها ... ونحن بعصرٍ فى أمانٍ وفى بشرٍ(١)



أخذ الشاعر كما رأينا يبكى وينوح على المغانى والمراقص التى دمرت ، وأماكن الحشاشين والخمارات والمطاعم التى اندثرت معالمها وأضحت كأن لم تكن بالأمس. وتحسر على الليالى الجميلة وأوقات السرور واللذة التى قضاها فى تلك الجهات بين الكاس والطاس . وصور الطبيعة وقد شاركته فى أحزانه ، وبكت لبكائه ، وناحت لنواحه . وقد أظلم الجو ، وانكسفت الشمس ، وانخسف القمر ، وجزعت الطيور ، ولطمت الجداول ، وألقت الأشجار أغصانها وتخلت عن أثمارها .



ومما هو جدير بالذكر أن القاهرة فى العصور الماضية ، امتازت بكثرة ما فيها من البرك مثل بركة الرطلى ، وبركة الفيل ، وبركة الأزبكية ، وبركة الحج ، وبركة الحبش . كما كان يمر بها الخليج المصرى والخليج الناصرى . لذلك كثرت فيها القناطر مثل قنطرة الدكة ، وقنطرة السباع ، وقنطرة الليمون ، وقنطرة الحسينية وغيرها مما لا يتسع المقام لذكره .

* * *

انتقلت إلى بركة الأزبكية الجماعات التى طردت من بركة الرطلى . وفى سنة ١٥١٧ م سقطت مصر فى أيدى العثمانيين . وفى الأعوام الأولى للاحتلال ، ضيق قاضي العسكر على النساء تضييقاً شديداً ، ومنعهن من الخروج بتاتاً ولأى سبب كان، ولم يستثن من ذلك سوى العجائز. وأوقع عقوبات صارمة على كل من تجرأت وخالفت أمره . كما منعهن من ركوب الحمير . وحرم على صناع الأحذية عمل أحذية لهن .

ولكن أيام هذا القاضى(١) لم تطل ، وما أن غادر القاهرة حتى أقامت نساء الأزبكية معالم الأفراح ، وخرجن إلى الطريق فى مظاهرة، يرقصن ويغنين بقولهن :

قوموا بنا نقحب ونسكر   قد خرج عنا قاضى العسكر

سارت نساء الأزبكية متبرجات متهتكات فى الشوارع والطرقات ، يرقصن رقصات خليعة فيها إغراء وتحريض على الفسق والفجور .

فمن هذه الرقصات ، رقصة النحلة ، وهى أن الراقصات يدعين وجود نحلة بين ملابسهن . ويصحن بأصوات ناعمة فيها إغراء وإثارة قائلات : النحلة أيوه ، النحلة أيوه . ويشرعن فى البحث بين ملابسهن عن هذه النحلة التى لا وجود لها

---

(١) ابن إياس ج ٥ /ص ٤٦٠

إلا فى مخيلتهن . ويتجردن من ملابسهن شيئاً فشيئاً حتى لا تبقى على أجسامهن سوى غلالة رقيقة لا تستر ما تحتها .

وقد أقبل الشبان فى تلك الليلة من كل ناحية ، وجاءوا من كل صوب . وكانت فوضى خلقية لامثيل لها ، وليالى حمراء تحرر فيها أكثر الناس من القيود وتركوا أنفسهم على هواها تتمتع بالخدود والقدود . وأى لوم على الشبان ما دامت النساء خرجن عاريات ليسكرن ويقحبن ، ويشبعن شهواتهن البهيمية التى حبسها ذلك القاضى العجوز مدة من الزمن ؟

* * *

ومن ذلك التاريخ (١٥٣٠ م) عمرت دور الفسق والفجور بوجه البركة بالفتيات الشركسيات والفرنجيات اللائى جلبن خصيصاً لمزاولة التجارة . واشتهر بيت « كُـوَيْك »(١) فى عالم الاتجار بالأعراض . وظل حاملا لواء هذه التجارة طوال العصر العثمانى .

وعرفنا من أفراد هذا البيت « شميرا » و « سمودا » و « أم خزام » فقد وردت هذه الأسماء فى شعر الهجاء الذى تبادله شعراء وجه البركة ، وفى المقامات المجونية التى دبجها أدباء تلك البيئة . مثال ذلك قول الشاعر محمد شبانة المتوفى سنة ١٧٩٥ من زجل فى هجاء قاسم بن عطاء الله المصري ، وهو :

هى قاسم قم بلا بطاء　　فى الحال وعود
وأتى بغلام　　دا اسهل عليك
واذهب لشميرا　　وجئنا بسعود
مع أم خزام　　تنقاد إليك

هـــا أنت إلى وكالة النـور تقود
تدمـخ وتنـــام يا بيت كويك

وقال حوده السُّـدَيدِى فى الهجاء :

شَيَّدْتَ لِلـفِسْق بَيْتاً سَاءَ مُنْتَـظَماً
بَيْتُ الـكُوَيْكِ بِهِ التَّـمْرِيضُ مُخْتَـبَرُ

* * *

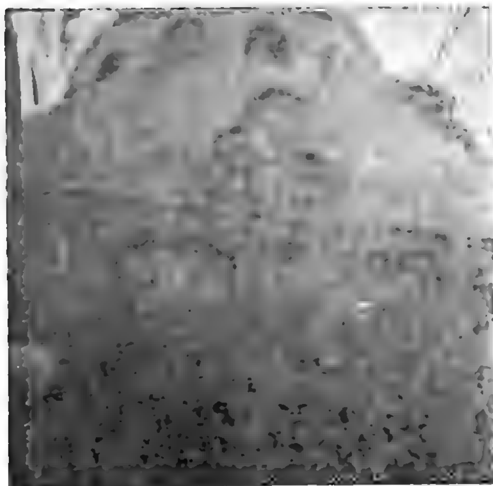


جامع الرويعى وقد حوله الفرنسيون إلى خمارة

---

(١) المدامة الأرجوانية ورقة رقم ١٣

وسكن وجه البركة شيخ تجار مصر في القرن السادس عشر وهو السيد أحمد الرويعي . وبنى مسجداً ما زال قائماً إلى اليوم . كما بنى لنفسه ضريحاً يتبرك الناس بزيارته اعتقاداً منهم أن صاحبه كان من الأولياء والأقطاب .



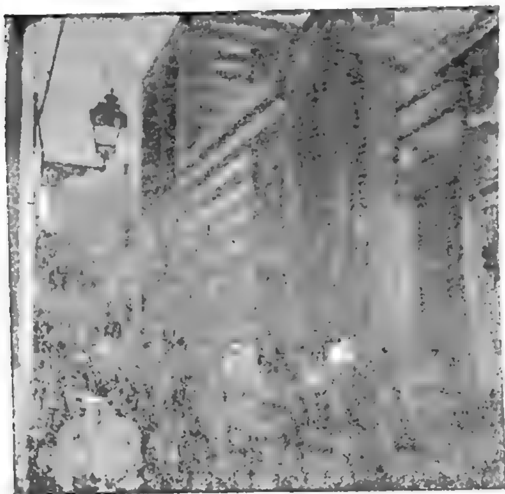
ضريح السيد أحمد الرويعي

وكانت عائلة الشرايبي تسكن قصراً ضخماً في وجه البركة . وفي سنة ١٧٣٦ بنى قاسم بن محمد داده الشرايبي جامع الشرايبي الذي يعرف الآن بجامع البكري بشارع الرويعي ، وقد سمي جامع البكري ، لأن المجذوب علي البكري قد دفن فيه سنة ١٧٩٢ .

وهذا الرجل ليس من العائلة البكرية المعروفة ، والبكرية ، بـ

إلى الطريقة البكرية • وقد ذكره الجبرتى فقال : « كان رجلا من البله يمشى بالأسواق عريانا مكشوف الرأس والسوأتين ، غائبا » •

ثم استطرد الجبرتى فروى أنه كان لهذا الرجل أخ فقير لا يكاد يجد قوت يومه • فلما رأى ميل الناس إلى أخيه ، واعتقادهم فيه ، حجزه فى منزله ، ومنعه من الخروج ، وألبسه ثيابا ، وأشاع أنه أصبح قطبا يطلع على الغيب ويخبر بما فى اللوح المحفوظ ، ويبرىء المرضى ويفرج المكروب • فأقبل الناس عليه متبركين حاملين له الهدايا والنذور ، وخصوصاً نساء الأمراء والكبراء • فجمع أخوه ثروة طائلة فى مدة وجيزة • وبذلك تخلص من الفقر الذى عاش فيه طوال حياته •



جامع الشرايبى ويطلق عليه جامع البكرى

ولما مات على البكرى ، دفنه أخوه حيث يوجد ضريحه الآن . وكان يحضر المقرئين والمنشدين والمداحين ورجال الطرق الصوفية ، فيقيمون عند الضريح الحضرات وينشدون الشعر فى مدح القطب « علي البكرى » ويرقصون . ويصرخون ، ويمرغون وجوههم على شباكه ، ويغرفون بأيديهم من الهواء المحيط به ويمسحون به وجوههم .

* * *

وكان الشيخ عبدالله الشبراوى(١) المتوفى سنة ١٧٥٥م ، والذى تولى مشيخة الأزهر فى عصره ، يسكن بالقرب من جامع الرويعى . فقد ابتنى قصراً متسعاً فى هذه الناحية ، حوى ألوان الترف والبذخ التى عرفها الأمراء والأغنياء فى تلك الأيام . ولا عجب فى ذلك ، فقد ورث الشيخ عن والده ثروة طائلة .

وكان فى ريعان شبابه يخرج مع أنداده وأترابه ، متجولا بين ملاهي الأزبكية ومراقصها . أو مضطجعاً على الحشائش بين الخضرة والمـــاء والوجه الحسن . وفى الليالى المقمرة يجدون جوا ساحرا فاتنا . فيلهون ويمرحون ، ويلعبون ويضحكون حيث لا رقيب ولا حسيب . وقد انعكس أثر هذا فى شعر الشيخ عبدالله كما انعكس فى شعر غيره من شعراء ذلك العصر الذين لا نتجاوز الحقيقة إذا أطلقنا عليهم اسم « شعراء وجه البركة » أو أدباء وجه البركة ، حتى تكون التسمية أوسع فتشمل الشعراء والكتاب الذين نثروا المقـــامات فى وصف تلك الجهات .

أنظر إلى قول الشبراوى :

أَلاَ إِنَّ دِينِى فَاعْلَمُوهُ هُوَ الهَوَى
وَمَوْتِى شَهِيداً فِى الصَّبَابَةِ مَذْهَبِى

---

(١) الجبرتى ٢٠٩/١ وانظر ديوان الشبراوى

ويبدو من هذا البيت أن الشيخ الشبراوى اتخذ الحب والعشق ديناً له • واعتنق مذهباً غير المذاهب الأربعة المعروفة • هذا المذهب الذى اختاره لنفسه هو « موته شهيداً فى سبيل العشق والغرام » ، وقال :

وأَصْبو إلى الوجهِ الجميلِ إذا بَدا وأسخطُ من ذكرِ السُّلوِّ وأغضبُ
وعشقُ القدودِ الهيفِ عندى عقيدةٌ وطبعٌ عليه قد رُبيتُ ومذهبُ
قضى اللهُ أن الحبَّ أعلى فضيلة وأن للهوَى أحلى نعيمًا وأعذبُ

ويذكر الشبراوى فى شعره أنه عالم بفنون الغرام ، وأن علمه قائم على التجربة والاختبار • ويدعو الناس إلى أن يتلقوا عنه هذه الفنون دون سواه • فهو الخبير بها ، العالم بأسرارها • ويقول إن الحب فى المرتبة العليا من مراتب الفضيلة • وهو أحلى النعم وأعذبها وأجلها مذاقا • وقد وقف قلبه على أرباب الجمال ، وأهل الحسن والفتنة • والهيام بالقامة الممشوقة والخصر النحيل ، دينه الذى يعتقده ، وسجيته التى نشأ عليها • فهو والحالة هذه يعبد الجمال ويهيم بالحسن حيث وجده . فلم يقصر الشيخ الشبراوى نشاطه على كتب الفقه والحديث والتفسير • بل جعل معظم نشاطه وقفاً على ربات الجمال ، يسعى وراءهن فى غير كلل ولا ملل ، حتى إذا وقعت عينه على إحداهن ، كانت نظرة فابتسامة فموعدا فلقاء • وقد وصف اجتماعا له مع إحدى عشيقاته ، فقال :

عانقتُه فتسودَّتِ المقلُ التى هى بَلْوَتى واحمرَّتِ الوَجناتُ
وضممتُ قامتَه فخلتُ كأنّها قد عَجَّلَت لذاتها الجنّاتُ
يا قلبُ إن زَعم العواذلُ أنه فى الحسن يوجد مثله قلْ هاتوا
ما زلتُ أجني من لذيذ خطابهِ تُحفاً لها من طيبه نَفَحاتُ

وبلغتُ قَصدِي حيث جاء لمنزلى هـذا النزالُ ورقّتِ الأوقاتُ
ودَنا يُوَدِّعُـنِى فلا وأبيكَ ما بَقِيت لَدَى التوديع فىَّ حياةُ

فهو يذكر العناق والضم والتقبيل . وبالطبع لم يقف الأمر عند هذا ، ولكن تعداه إلى شيء آخر .

* * *

ولم يكتف الشيخ الشبراوى بوجه البركة وما فيه من الجمال الإنسانى والطبيعى ، بل غلبت عليه نزعة البوهيمية . فكان ينتقل من جهة إلى جهة ، ومن حديقة إلى أخرى . وكان الإفرنج فى ذلك العصر يسكنون فى حى خاص بهم على شاطىء الخليج ، يمتد من السكة الجديدة إلى نهاية الخرنفش . وقد اعتاد الشيخ الشبراوى أن يتريض مع بعض أصدقائه بالقرب من هذا الحى ليتمتع نفسه بجمال الفتيات الفرنجيات . وهذا هو السر فى أنه يذكر الخليج فى شعره ، ويتغنى بالليالى الحلوة التى أمضاها على شاطئه ، ينزه عينه — كما قال — بين القدود والخدود . قال :

يا خَرِيرَ الخليجِ تَفْدِيك نَفسِى فَلكَمْ نِلْتُ فى هواكَ مُنائى
يا نَديمِى جَدِّدْ بِذِكْراهُ وَجْدِي واحىِ ذاكَ الغَرامَ بالإغـراءِ
أنا أهوَى الجمالَ والأعيُنَ النُّجْـل تُذِيبُ القلوبَ بالإيماءِ
أىُّ عَيْش يَطيبُ فى مِصْرَ إلاَّ بِمَـليحٍ مُتَوَّجٍ بالبَهـاءِ
نَزِّهِ الطَّـرفَ بَيْنَ قَدٍّ وَخَدٍّ وَجبِينٍ وطَلعَـةٍ حسـناءِ
وتَمَتَّعْ بِكُلِّ أهيفَ أَلمَى ذِى دَلالٍ ومُقلَةٍ نجـلاءِ
آهِ لوْ كانَ لى عَنِ الغِيدِ صَبْرٌ كانَ قلْبِي فى راحةٍ مِنْ عَناءِ

وقال من قصيدة أخرى :

وكَمْ لِي إلى مَجْرَى الخليجِ التفاتَةٌ   يَسيلُ بها دمعِي على ذلك المجرَى
وكم قلتُ للقلبِ الولوعِ بِذِكرِها
تَصَبَّرْ ، فقالَ القلبُ لم أستَطِعْ صَبْرَا

وكان هذا الشعر الغزلى الذى أكثر الشبراوى من نظمه ، منتشراً بين مختلف طبقات الشعب وذلك بفضل المغنين الذين أذاعوه فى الموالد والأفراح ، ومغنى المقاهى الذين أقبلوا على إنشاده لما وجدوا به من رقة وعذوبة وملاءمة لروح عصرهم .

* * *

وللشيخ الشبراوى قصيدة زجلية طويلة مطبوعة ، لا نستطيع أن نقف عندها لأنها تصور الشذوذ الجنسى . وتمتاز هذه القصيدة بأنها فى أسلوب قصصى . فالناظم يسرد لنا قصة وقعت له .

وعلى كل حال ، فشعر الشبراوى تنعكس فيه صورة البيئة الأزبكية ، هذه البيئة الخليعة الماجنة .

* * *

ومما هو جدير بالذكر أن الأزهريين فى العصر العثمانى لم يستنكروا ما كانوا يرونه من أنواع الموبقات ، وانغماس الناس فى الشهوات ، وعكوفهم على الخلاعة والمجون . بل إنهم شاركوا العامة فى ذلك ، ولم يجدوا عيباً فى المجاهرة بما يرتكبون من ضروب الفساد .

فهم يحضرون الموالد التى كانت مجمعاً للعشاق والفساق دون أن ينكروا شيئاً من هذه الأمور . وقد روى أن محمد بن إبراهيم العوفى المالكى المتوفى سنة ١٧٧٤ كان شاعراً ماجناً خليعاً . ومع ذلك فقد اشتغل بالتدريس فى الأزهر . وكانت حلقة درسه تزيد على الثلاثمائة . وهذا عدد كبير بالنسبة لمجموع الطلبة إذ ذاك .

وعرض الجبرتى لأخلاق رجال الأزهر الشريف فى أيامه ، فقال فى ص ٦٩ من الجزء الرابع ما نصه : « ... وارتكابهم — يعني رجال الأزهر — الأمور المخلة بالمروءة ، المسقطة للعدالة كالاجتماع فى سماع الملاهي والأغانى والقيان والآلات المطربة ، وإعطاء الجوائز والنقوط بمناداة الخلبوص وقوله بمسمع من النساء والرجال وعوام الناس وخواصهم برفع الصوت الذى يسمعه القاصى والدانى ، وهو يخاطب رئيسة المغانى : ياستى ، حضرة شيخ الإسلام والمسلمين ، مفيد الطالبين ، الشيخ العلامة فلان ، منه كذا وكذا من الذهب ، قدر مسماه كثير وجرمه قليل ، نتيجة التفاخر الكاذب ، والازدراء بمقام العلم بين العوام وأوباش الناس الذين اقتدوا بهم فى فعل المحرمات؛ الواجب عليهم النهى عنها . كل ذلك من غير احتشام ولا مبالاة مع التضاحك والقهقهة المسموعة من البعد فى كل مجمع ، ومواظبتهم على المزليات والمضحكات ... »

ونرى الشبراوى يجاهر بأنه ترك التقوى والورع ، وعكف على الخلاعة والتهتك . قال :

أَبدَلتُ فيــهِ تَنَسُّكِى بِتَهتُّكِى
وأخـذتُ من قولِ العدوُ بِضِدِّهِ

وهذا أزهرى آخر، هو إسماعيل الظهورى المتوفى سنة ١٧٩٥ يقول من قصيدة:

---

(١) الجبرتى ٣/١٩

هَلِ العَيْشُ إلاَّ فى اكتسابِ مآثِم ... أو العمرُ إلاَّ فى اقتناءِ محارِمِ(١)
أوِ الغُنْمُ إلاَّ فى ارتكابِ كبيرةٍ ... أوالسُّكْرُ إلاَّ فى ارْتِشافِ مَباسِمِ(٢)
سَقَى اللهُ أيّامَ البَطالةِ أدْمُعاً
مِنَ العَيْنِ تجْرِى كالغيوثِ السَّواجِمِ(٣)
زَمانٌ بِهِ كان السرورُ بخنصِرى ... خِتاماً وكانَ الظَّبْيُ فيهِ مُنادِمِى
إذِ العَيْشُ طلقٌ والرِّياضُ بَواسِمٌ
عَنِ النَّوْرِ لكن مِن شِفاهِ الكمائِمِ(٤)
وسَيْرِى إلى تلكَ الدَّساكِرِ سُحْرَةً
وغُنْمِى بِها من طَيِّباتٍ مَواسِمِ(٥)
وَجرِّى ذيولَ التِّيهِ فى عَرَصَاتِها
جِهاراً وَضَمِّى لِلْقُدودِ النَّواعِمِ(٦)
خَلِيلِى لو وافَيْتُمُ حَقَّ صُحْبَتِى
لَكنتمْ رفاقِى بين تلكَ المَعالِمِ(٧)

---

(١) المــآثم : المعاصى .
(٢) ارتشاف : مص . مباسم : الثغور ، جمع ثغر وهو الفم .
(٣) أيام البطالة : أوقات التفرغ للهو . الغيوث : جمع غيث وهو المطر . والســواجم : المتساقط من المطر .
(٤) الـكمائم : جمع كم وهو الوعاء الذى يظهر فيه الطلع وغطاء النور .
(٥) الدساكر : أماكن اللهو وحانات الخمر .
(٦) عرصاتها : ساحاتها .
(٧) المعالم : الأماكن .

تحيَّا الحيا دارَ الأحبَّةِ ما شدا
على الدَّوحِ مطرابُ الأصائِلِ هائِم(١)

لقد طالَ ما نازعتُ فيها زجاجةً
تضمَّنتِ الأفراحَ من عهدِ آدم

معتقةً صاغَ المِزاجُ لرأسِها
أكاليلَ من دُرٍّ كدُرٍّ دراهم

إذا ما جلاها مخطفُ الخصرِ فى الدُّجا
وغنَّى عليها مثل شدوِ الحائم(٢)

أبحتُ طريفِى فى هواهُ وتالدِى
وصيَّرتُهُ مولىً علىَّ وحاكمى(٣)

فى هذه القصيدة نلمس دعوة صريحة إلى الفسق والفجور ، دعوة إلى الإباحية وترك الدين والإعراض عن أوامره ونواهيه ، والإقبال على الخمر والزنى . وهذا الشيخ الأزهرى لم يجد مانعاً من أن يصرح بما ارتكبه من المعاصى وما اقترفه من الآثام .

وكان الظهورى يجيد الموسيقى ، وله إلمام تام بالألحان وضرب العود . وهو من

---

(١) الحيا : المطر . شدا : غنى . الأصائل : جمع أصيل وهو وقت الغروب . هائم : سائر على غير هدى .

(٢) مخطف الخصر : نحيل الخصر . الدجى : الظلام . شدو : غناء .

(٣) الطريف : المستحدث . التالد : القديم . يقول : إنه يضحى بكل ما يملك من حديث الثروة وقديمها فى سبيل حبيبه . والمولى : السيد .

شعراء وجه البركة الذين تأثروا فى شعرهم بهذه البيئة الخليعة إلى حد كبير كما مر بنا من شعره .

* * *

ومن الفضائح التى سجلها المؤرخون(١) فى ذلك العصر، ماروى من رجل اسمه « أحمد صادومة » كان بالقاهرة أيام محمد بك أبى الذهب . وكان الأزهرى المشهور الشيخ حسن الكفراوى يذيع عنه أنه من الأولياء وأرباب الأحوال والمكاشفات. بل كان يقول إنه قطب الزمان ، وأخذ يروج هذه المزاعم عند الأمراء .

وحدث أن أحد هؤلاء الأمراء واسمه يوسف بك ، اختلى بمحظيته ، فرأى على سوأتها كتابة . فسألها عمن كتبها ، فأجابت بأنه الشيخ صادومة . فأمر بقتله فى الحال وإلقاء جثته فى النيل . ثم أمر بتفتيش منزله ، فوجدوا به تماثيل ، ومنها تمثال من قطيفة على هيئة ذكر . ولما انتشرت هذه الفضيحة ، خاف الشيخ الكفراوى على نفسه ، وتوارى عن الأنظار مدة من الزمن .

* * *

وانتشر المتصوفة فى حدائق وجه البركة ، يرتكبون المعاصى جهاراً نهارا ، ويقولون إن هذا مقدر عليهم ولا مهرب لهم منه . وزعموا أنهم اتصلوا بالله اتصالا من شأنه أن يسقط عنهم التكاليف الشرعية من صيام وصلاة وحج وزكاة . وانطلقوا على هواهم يفسقون ويعربدون . ولم يستطع أحد أن يتعرض لهم بسوء ، إذ كانوا قوة يخشى بأسها . ومن العجيب أننا وجدنا رجلا كالشعرانى المتوفى حوالى سنة ١٥٦٩ يقول إنه لابد للمعاصى من فاعل . ويدعو إلى السكوت عن مفاسد المتصوفة ، وعدم التعرض لهم بالنقد ، لأن نقدهم والتعرض لهم باللسان حرام ، وجالب لغضب الله ، هذا ما قاله الشعرانى ، مع أن هؤلاء المتصوفة كان

---

(١) الجبرتى ٢/١٩

يتفشى بينهم الإلحاد . وإنما اتخذوا التصوف ستارا لابتزاز الأموال حتى يعيشوا عالة على المجتمع . انظر إلى ما رواه مؤلف كتاب « هز القحوف » « كان يعيش في القرن السابع عشر » وهو :

« ... وسمعت(١) بعض الملحدين من الدراويش الحلقين لحاهم يقول كلاما يخالف الكتاب والسنة ، وهو أن البعث والنشور ، والجنة والنار ، لا حقيقة لها وأن الشخص جنته وناره وحسابه في نفسه . وأن الدنيا لا تفنى ولا تزول ، وإنما هي شمس تطلع ، وقمر يغيب ، وينشد قول أبي العلاء المعرى :

أتى عِيسى فأبطلَ شرعَ موسى   وجاءَ محمدٌ بصلاةِ خمسِ
وقالوا لا نَبيٌّ بعدَ هذا   فضَلَّ القومُ بينَ غدٍ وأمسِ
ومها عِشتَ في دنياكَ هذى   فما تُخْلِيكَ من قمرٍ وشمسِ
فإنْ قلتُ المحالَ رفعتُ صوتي
وإنْ قلتُ الصحيحَ دخلتُ رَمْسِي(٢)

« ثم يقول إن الشخص إذا خرجت روحه ومات ، دخلت في جسد من الأجساد في آدمي أو حيوان حتى يدور عليها الدور ، فترجع إلى صاحبها الأول فيظهر بصورته التي كان عليها أولا . وهكذا سائر العوالم » .

* * *

وقد حدث أن عبدالله جاك مينو(٣) القائد الفرنسي المعروف ، خرج ذات يوم متجولا في شوارع الأزبكية . فرأى أحد الدراويش يسير متجرداً من ملابسه .

---

(١) الرمس . القبر .   (٢) ص ٧٦   (٣) الجبرتى ٣/١٤١

وهذا منظر مخل بالآداب • فوجه سؤالا إلى شيوخ الأزهر عن حكم الإسلام فيمن يسيرون فى الأسواق ، ويكشفون عوراتهم ، ويصيحون ويصرخون ويدعون الولاية ، وتتقدمهم العامة ، ولا يصلون صلاة المسلمين ولا يصومون ، وهل هذا جائز فى الدين الإسلامى أم محرم ؟

فأجابوه بأنه حرام ومخالف للدين والشرع والسنة • فأمر مينو بمنع هؤلاء الناس من السير على ما اعتادوا ، وإلقاء القبض على كل من يخالف هذا الأمر ، ووضعه فى المارستان إن كان مجنونا ، أو إخراجه من القاهرة إن كان عاقلا •

* * *

وكان بعض هؤلاء المتصوفة مخنثين ، يخضبون أيديهم وأرجلهم بالحناء ، ويلبسون الثياب الزاهية الألوان ويكحلون عيونهم بالكحل الأسود ، ويمضغون اللبان ، ويتعرضون للناس ويمسكونهم من مواضع حساسة من أجسامهم ، ويختلون بهم فى أماكن مظلمة فى وجه البركة فى الأزقة والخرائب أو الحدائق • ولم تكن الشوارع تضاء فى تلك الأيام . فكان من السهل على الناس أن يعملوا ما تشتهيه نفوسهم دون خوف :

* * *

وفى العصر العثمانى (القرن الخامس عشر) عرف المصريون شراب القهوة • وقد قيل إن أول من اهتدى إليه هو أبوبكر بن عبدالله المعروف بالعيدروس • وكان أصل اتخاذه له أنه مر فى إحدى سياحاته بشجر البن ، فأكل من ثمره حين رآه متروكا لا ينتفع به أحد مع كثرته • فوجد فيه تجفيفا للدماغ ، واجتلابا للسهر ، وتنشيطاً للعبادة • فاتخذه قوتا وطعاما وشرابا ، وأرشد أتباعه إليه • ثم نشر ذلك فى اليمن والحجاز ومصر • وقد جاء أبوبكر إلى القاهرة حوالي سنة ١٤٨٦ •

وكما أن الصوفية هم الذين أدخلوا مادة الحشيش المخدرة إلى مصر فى القرن الثالث عشر وأشاعوا استعمالها بين المصريين ، كذلك أدخل الصوفية شراب القهوة فى مصر فى القرن الخامس عشر .

وكما اختلف المصريون فى الحشيش ، وهل هو حرام أم حلال ، اختلفوا كذلك فى أمر القهوة . فذهب قوم إلى تحريمها لما فيها من الضرر ، وخالفهم آخرون ومنهم المتصوفة ، وقالوا بإباحتها لأنها ليست مسكرة ولا مغيبة ، وإنما فيها تنشيط النفس لأشغالها وما يطلب منها ، وخصوصا فى سهر العبادة أو قراءة القرآن أو دراسة علم أو تحصيل معاش . فإن قصد بها الإعانة على شيء من ذلك ، كانت قربة عند الله .

أما الذين حرموها فقد استندوا إلى أنها تحاط عند شربها بطقوس كالتى تحاط بها الخمر كتصفيق شاربها ، وإنشاد أشعار الغزل والحب ووصف الخمر ، إذ أن ذلك يفسد النفس ، وبخاصة إذا صحبها مخدر مثل الحشيش والأفيون وخبز الغراب والسطل . ولأن المقاهي تجمع الصغار والكبار والأراذل الذين يروجون الأكاذيب ويغتابون الناس ، ويلعبون الشطرنج وألعاب الميسر . وأنكروا على رجال الدين ذهابهم إلى المقاهى ، ورأوا أن ذلك يخل بالمروءة ويسقط الشهادة ، ويدنس العرض .

وقد ألف المتعصبون لها الرسائل فى بيان فضائلها ومنافعها . وذكروا أن شجرة البن فى الجنة غرسها سبعون ألف ملك وتسمى شجرة السلوان ، لأنها خرجت مع آدم ليتسلى بها عما فاته من النعيم المقيم . وقالوا إن مداومة أكل البن يقوى النظر والفهم ، ويدفع الجدرى والحصباء والسحر . وفى أكل سبع حبات منه دعوة مستجابة ، لأن فيها « بسم الله الرحمن الرحيم » .

* * *

ولم يقف الشعراء بمعزل عن هذه المعركة ، بل ساهموا فيها بنصيب وافر ، ونظموا القصائد والمقطوعات فى القهوة ومزاياها . ومن أمثلة ذلك قول أحدهم :

يا عائباً لِشَرابِ قهوتِنا الَّتى ... تَشْفِى شفاءَ النَّفْسِ من أمراضِها
أوَ ما تَراهَا وهيَ فى فنجانِها ... تَحْكِى سوادَ العينِ وَسْطَ بياضِها

وقال آخر :

لِلبُنِّ سِرٌّ قد حكَتْهُ شيوخُنا ... يا نِعْمَ مِنْــهُ كلُّهمْ أقطابُ
فيهم تَقولُ وقد تكاملَ وَصْفُه ... فى أكلِهِ نَفْعٌ وفيــه ثوابُ

وقال غيره :

وقهوة بُنٍّ تورثُ اللُّبَّ قوةً ... ومن عجبٍ والقشرُ أصلٌ وعنبرُ
ومها أرادتْ عصبةٌ منعَ شُربِها ... ترَى أمرَها يعلُو ويقْوَى ويظهرُ
وأعجبُ منها قولُ مَنْ ضَلَّ رأيُه ... بلَى عرفَ الحقَّ الصُّراحَ ويُنكِرُ
يُكابِرُ فيها الحَقَّ واللهُ شاهِدٌ ... فيزعُمُ فيها أنَّها الحِسَّ تُسْكِرُ
تحقَّق فيها النَّفْعُ لا سِيَّمَا لمنْ
عنِ الجِدِّ فى فِعْلِ العبادَةِ يَفْتُرُ(١)

وقد بقيت مشكلة تحريم القهوة وتحليلها بين علماء مصر مدة من الزمن ولكن لم يكد ينتهى القرن السادس عشر حتى انعقد الإجماع على تحليلها . وفتحت المقاهى

---

(١) يفتر : يضعف .

فى وجه البركة بنوع خاص . وذلك لأن الأحياء السكنية لم يكن أحد من أهلها يقبل أن ينشىء فى بيته مقهى كما هو الحال الآن وحتى لو صادف وأنشئت مقاه فى تلك الأحياء ، فإن الناس كانوا يجلسون فيها فى منتهى الأدب والحياء .

أما مقاهى وجه البركة فكانت مراقص ومغانى ، وأندية للقوادين وتجار الأعراض ، وبؤرة للحشاشين وبائعى المخدرات ، ومجمعاً لطلاب اللهو الحرام . وكان أصحاب المقاهى يتنافسون فى اجتذاب الجماهير ، فيتخذون وسائل مختلفة لإغراء الناس بالجلوس فى مقاهيهم . فمنهم من يستأجر الفتيات الجميلات من بنات الهوى ، يرقصن رقصات البطن التى لا تزال معروفة . ولما لم تكن هناك رقابة على تلك المقاهى ، فلذلك ذهب أصحابها فى الفحش إلى حد بعيد . فكان السهر فيها غير محدد بوقت معين . والراقصات يزاولن عملهن عاريات . فلم تكن إحداهن تلبس إلا ثوبا رقيقا لا يستر جسمها بل يزيده فتنة وجمالا .

وكانت طائفة الغجر والجعيدية منتشرة فى وجه البركة انتشارا عظيما . ولأن أجورهم كانت فى متناول الطبقات الفقيرة ، فلذلك كان الإقبال عليهم شديداً ، ومقاهيهم ومواخيرهم مزدحمة بالناس وبخاصة أصحاب الحرف والعمال والفلاحين الذين يفدون من ضواحى العاصمة للتفريج عن أنفسهم وإراحتها من عناء الأعمال .

ورأينا بعض المقاهى تستأجر القصاص ليسلوا الناس بالحكايات اللطيفة ، والنوادر الطريفة ، والملح المطربة ، والنكات المنعشة . وكان القاص يجلس فوق دكة مرتفعة ، ويأتى بحركات تناسب المقام . ويغير صوته ويبدله تبعا لمواقف القصة المختلفة . فهناك موقف يحتاج إلى صوت مرتفع غليظ ، وموقف يحتاج إلى صوت منخفض حزين ، وغيره يحتاج إلى صوت ينم عن التوسل والتضرع . وموقف يحتاج إلى صوت مضحك ، وهكذا .

وفى أثناء القصة ينشد القاص بعض الأزجال والموشحات أو المواويل أو الشعر العامى الذى لا يتقيد فيه ناظمه بوزن ولا بصحة نحو واستقامة لغة • وإنما يرتجله كيف ما كان • وليس فيه من سمات الشعر إلا وحدة القافية • ونجد كثيرا من هذا الشعر فى سيرة الظاهر بيبرس ، وهز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف وغيرهما•

فلا عجب أن راجت سوق الأدب الشعبى بوجه البركة رواجا عظيما لم يسبق له مثيل • وكثر إنتاج هذا الأدب على اختلاف أنواعه كثرة هائلة • ومن القصص التى ظهرت فى هذا العصر « سيرة الظاهر بيبرس » فى سبعة آلاف صفحة • وتمتاز هذه القصة بوجود كلمات تركية فيها مثل باشا ، وبك ، وطوبجى ، وخانجى وغيرها • كما تمتاز بوجود كلمات أوروبية مثل كرستيان ، ورين ، ودوكاتا •

وقد صورت القصة الحياة الاجتماعية المصرية فى القرى والمدن • فنرى المؤلف يروى لنا حيل الملتزمين وألاعيبهم التى يسلكونها ليخصوا أنفسهم بجانب كبير من أموال الحكومة ، وتسخيرهم للفلاحين فى الأعمال الشاقة مقابل أجر ضئيل جدا لا يتجاوز رغيفين وبصلتين فى اليوم •

كما صورت لنا فساد الحياة فى مدينة القاهرة وما كان بها من أنواع اللصوص وأمكنة الدعارة ومحال الخمر والرقص والغناء ، وحوادث الخطف التى كانت تجرى جهارا نهارا وبخاصة خطف العمائم • وطبقات السواس الذين قسموا القاهرة إلى مناطق ، تستأثر كل جماعة بمنطقة لا تتجاوزها إلى غيرها •

وحدثتنا عن فتوات الحسينية وما كان لهم من نفوذ وسلطان ، وما اتصفوا به من عادات وأخلاق • ولا شك أن القارىء سيقف طويلا أمام شخصية عثمان ابن الحبلة الذى كان يتخذ مغارات جبل المقطم مقرا له ومقاما • ويعيش مع عصابته

على الخطف والنهب . وكان عثمان كما نرى من القصة إذا مر فى شارع ، هرب الناس من وجهه واختفوا فى مساكنهم حتى تخلو الطرق تماما من المارة . فهذا الرجل كان يبعث الرعب والفزع فى القلوب ولم ينج من شره بعض كبار الحكام . ولكن بيبرس استطاع أن يحطم غروره ويذله . ثم طلب منه أن يتوب عن السرقة والنهب ، ولا يلحق الأذى بالناس ، فتاب ولازم بيبرس ، وأصبح ساعده الأيمن قبل توليته ملك مصر .

وفى القصة مجال واسع للجاسوسية ، وبراعة فى التخفى والتنكر . فمن أبطال الجاسوسية جمال الدين شيحة وأولاده . وكانوا يعملون بنشاط منقطع النظير فى هذا الميدان . فتراهم يتنكرون فى هيئة رهبان ، أو دراويش ، أو تجار من بلاد الروم أو من بلاد العجم . وأحيانا كثيرة فى هيئة فتيات جميلات شركسيات أو جوارى حبشيات ، ويطلون أجسامهم بألوان تناسب الحالة التى يتنكرون فيها . ولهم مهارة فائقة فى تسلق جدران القصور والأسوار والحصون والقلاع ، والتسلل إلى داخلها ليلا واستخدام البنج ليفقد العدو وعيه ، وحينئذ يحملونه ويهربون به .

وكان شيحة حافظاً للانجيل ، إذا رتل بصوته الشجى أثر فى سامعيه إلى حد كبير . ويجيد التكلم بلغة الفرنجة ، كما كان خبيرا ببلادهم وعاداتهم وتقاليدهم . لذلك كان إذا تنكر فى هيئة بطريق مسيحى لم يستطع أحد أن يكشف حقيقة أمره .

وفى القصة نرى أحد رجال الدين المسيحى ، واسمه البطريق جوان الذى جعله المؤلف لا يقل مهارة فى التنكر والتخفى عن شيحة . وكان جوان حافظاً للقرآن ولكثير من الأحاديث النبوية ، دارساً لأمهات الكتب اللغوية والنحوية وكتب

الفقه والتفسير . فاستطاع أن يدخل القاهرة متنكرا فى زى عالم مسلم اسمه « الشيخ صلاح الدين العراقى » وأن يظفر بوظيفة قاضى الديوان الملكى ، وكانت من الوظائف التى يشغلها عادة أعظم علماء المسلمين .

* * *

وشرع جوان أو الشيخ صلاح الدين يدس الدسائس تلو الدسائس للكيد للمصريين حكومة وشعباً . ويراسل الفرنجة سرا ويحرضهم على احتلال مصر . واتخذ له مسكناً بحارة الروم .

وعندما تولى بيبرس ملك مصر ، اجتهد فى القضاء على أرباب الفساد وأهل الدعارة وعصابات اللصوص ، وقطاع الطرق وقد سرد علينا المؤلف قصصاً ونوادر عن هذه الطوائف . وكيف تمكن بيبرس من القضاء عليها وتطهير البلاد من شرها وفسادها .

أما الذين انتفع بهم بيبرس فى ميدان القتال فأشهرهم الفارس المغوار «إبراهيم الحورانى » صاحب قلعة حوران بالشام . وكان مقيما فى مصر مع أتباعه الحوارنة فى مساكن خاصة بهم . وقد ظل إبراهيم طوال حياته مخلصاً لبيبرس . ولم يسلم إبراهيم من دسائس جوان الذى حاول كثيرا أن يوقع بينه وبين سيده. وكاد يفلح فى ذلك لولا حكمة الوزير شاهين ، وذكاء جمال الدين شيحة .

والبطل الثانى ، سعد بن دبل البيسانى ، وهو ابن خالة إبراهيم ، وعملها متشابه. فى الديوان الملكى . فهما يحرسان القصر ليلا ، ويلازمان الملك فى حله وترحاله. ملازمة الظل .

والبطل الثالث ، أيدمر البهلوان الذى اشترك فى جميع الحروب والمعارك

التى خاض غمارها الجيش المصرى ، وشاهد من الأهوال ما يعجز القلم عن وصفه . وبعد وفاة سيده ، وقع فى ضائقة شديدة ، واضطر إلى أن يعيش — كما تذكر القصة — فى قلعة الكبش متنكرا فى زى سقاء ، وذلك هربا من بطش قلاوون الذى نكل برجال بيبرس فى غير رحمة ولا شفقة .

* * *

وانتفع بيبرس إلى حد كبير بأبى بكر البطرنى . فقد كان هذا الرجل قائداً عاما للقوات البحرية المصرية فى ذلك الوقت . فأبلى بلاء حسناً فى المعارك البحرية التى دارت بين المصريين والفرنجة . ولعب دوراً هاما فى هزيمة أسطول « استالود » ملك جزائر الجلف وغيره من ملوك أوربا . وكان بارعا فى المعارك البحرية ، وله سفينة اسمها « السحاب » اتخذها دائماً مقراً لقيادته .

* * *

والبيئة المصرية ظاهرة فى هذه القصة الطويلة ظهوراً لا خفاء معه . فلم يترك المؤلف ناحية من نواحى الحياة المصرية دون أن يوفيها حقها من البحث والتمحيص والتحليل ، ورسم لنا صورة واضحة لحياة الشعب المصري . فهو شعب ناضج ، يسخر من الحاكم المستبد ، ويعترض طريق الملوك والولاة الظالمين ويشتمهم شتما عنيفاً ، ويسبهم سباً قبيحاً ، كما فعل مع عز الدين أيبك التركمانى حتى اضطر هذا الملك كما ذكر المؤلف إلى أن يعمل سردابا تحت الأرض يسلكه إذا غادر قصره إلى الديوان الملكي ، وذلك فراراً من الشعب الذى كان يقف له بالمرصاد ، ويوجه إليه الشتائم والسباب .

وقد سرد المؤلف كثيرا من أسماء أحياء القاهرة وحواريها وشوارعها .

فذكر حي بولاق ، وباب الشعرية ، والحسينية ، ومصر العتيقة ، وباب الخلق ، وباب اللوق ، ودرب الجاميز ، والبساتين ، وقلعة الكبش ، وقناطر السباع ، وشبرا ، وباب الحديد ، والرميلة وغيرها .

ويكثر فى القصة استخدام البنج بوضعه فى الطعام أو الشراب ، أو إلقائه فى النار ، وأحيانا نرى السم بدله .

ويشيع فيها الاستعانة بضروب السحر وتسخير الجان . وبها ما شئت من ضروب التهكم وأنواع السخرية والتحليل النفسى الدقيق ، والمآزق التى تسمى « عقدة القصة » وفيها من قوة الخيال ما يبعث على الدهشة ، وبها صراع بين الخير والشر .

* * *

وانتشرت قصص العشاق وأخبارهم ونوادرهم ومصارعهم ، وراجت بعض الكتب القديمة التى تتناول هذه الموضوعات . مثل كتاب [مصارع العشاق لأبى بكر محمد السراج] . وقد اختصره داوود الأنطاكى وهو ممن أقاموا بالقاهرة مدة من الزمن وتوفى حوالى سنة ١٥٩٠ وسمى المختصر « أسواق العشاق » .

وكثر فى هذا العصر انتشار المواد المخدرة وبخاصة الحشيش وأنواع السطل . واشتهرت ناحية وجه البركة بغرز الحشاشين ولم ينافسها فى هذا الميدان سوى ناحية الحسينية التى كان بها قنطرة على الخليج عرفت بقنطرة الحشاشين ، وأخذ الناس يتداولون قصص الحشاشين ونوادرهم وفكاهاتهم . وألف بعضهم فى ذلك رسائل وفصولا فيها ما يدل على قوة الخيال ، وخفة الروح التى اشتهر بها المصريون حتى فى عصور المحن والشدائد .

* * *

وفى هذا العصر انتشر الدخان الذى ظهر فى مصر لأول مرة سنة ٩٥٩٥ (١٠٢٠م) كما ذكر الإسحاقى فى تاريخه . وقد سجل لنا رأيه فى الدخان فقال : «إن الدخان مضر بالأبدان ، وهو يابس الطباع ، لاشىء فيه من الانتفاع ، مبطل لحركة الجماع ، مسود للأسنان ، مهرب لملائكة الرحمن ، وعاقبته وخيمة ، ومداومة شربه ذميمة . يورث النتن فى الفم والمعدة ، ويظلم البصر ، ويطلع بخاره على الأفئدة . ومن زعم أن شربه محرق للبلغم فقد أخطأ فيما زعم ، وقوله فى ذلك غير صحيح . ولو لم يكن من دناءته إلا ولوع السودان به والأجلاف لكان فى ذلك ما يكف عنه الأشراف . »

ولم يكن شأن الدخان كشأن القهوة . فقد تمسك كثير من فقهاء المسلمين بتحريمه . وما زال المسلمون فى اختلاف من أمره فالوهابيون مثلا يحرمونه .

وكانت تصدر أحيانا أوامر بمنع تعاطيه جهاراً . فقد ذكر الجبرتى فى حوادث سنة ١١٥٦ هـ (١٧٤٠ م) أن الوالى العثمانى أصدر أوامر بمنع شرب الدخان فى الشوارع وعلى الدكاكين وأبواب البيوت . ونزل ومعه الأغا ونادى بذلك وشدد فى الإنكار والنكال بمن يفعل ذلك . وأخذ الأغا يمر ثلاث مرات فى اليوم ، وكل من رأى فى يده آلة الدخان عاقبه ، وربما أطعمه الحجر الذى يوضع فيه الدخان بما فيه النار .

وقد تعصب المتصوفة للدخان كما تعصبوا للقهوة والحشيش من قبل .

على أن أوامر منع التدخين جهاراً لم تكن بصفة مستمرة . وإنما كانت تصدر بصفة مؤقتة ثم تهمل عقب صدورها بمدة وجيزة . وما هو السر فى تحريم الدخان

مع وجود البغاء تحت سمع الحكومة وبصرها ، بل وفى حمايتهـا إذ أنها كانت تفرض ضرائب معينة على كل امرأة تزاول الدعارة ؟؟

* * *

كثرت إذن وسائل التسلية والطرب فى وجه البركة . ووجد الناس ما يغريهم بالسهر . فالمقاهى فاتحة طوال الليل . وحانات الخمر ومحلات البوظة تملأ الجو بروائحها ، وعلى دككها ومصاطبها يجلس المكارون والسواس والحالون وأرباب الحرف . والسقاة يروحون بينهم ويجيئون حاملين القرع المملوء بالبوظة . أو دوارق الخمر القبرصى والزحلاوى والمصرى . وكانت الحكومة العثمانية تحرم على المسلمين الاتجار فى الخمور ، فانفرد بذلك غير المسلمين وبخاصة اليونانيين والقبرصيين . وهؤلاء يعرفون عند المصريين بالأروام . واشتغل أقباط مصر بصنع الخمر من البلح. وأقام بعضهم مصانع للخمر بوجه البركة. وفى شارع القبيلة بالذات قام مصنعان كبيران . ويلاحظ أن الدولة لم تحرم على المسلمين الاتجار فى البوظة مع أنها مسكرة ، ولم تحرم عليهم الاشتغال بالدعارة وهى من الكبائر .

وكانت أماكن الغناء وصالات الرقص تظل تعمل حتى مطلع الفجر وهى مزدحمة بالشبان . والغوازى رائحات غاديات ، متبرجات متهتكات ، للقلوب ساحرات ، ولما فى الجيوب ناهبات .

فوجه البركة كان الحى الساهر الذى لا ينام . ليله كله حركة وصخب ، وعربدة وتهتك ، وخلاعة ومجون ، وحشيش وخمر ، وكاس وطاس . ونساء وغلمان . وفى ذلك يقول الشيخ حسن العطار وهو من أدباء وجه البركة الذين تأثروا فى أدبهم بما تزخر به هذه البيئة الماجنة كما سنرى : « يوقد بها كثير من السرج والشموع ، فالأنس بها غير مقطوع ولا ممنوع ، وجمالها يدخل على

القلب السرور ، ويذهل العقل حتى كأنه من النشوة مخمور . ولطالما مضت لى بالمسرة فيها أيام وليالى هن فى سمط الأيام من يتيم اللآلى . »

* * *

وفى أيام الأمير كتخدا رضوان المتوفى سنة ١٧٧٥م انتشرت الفوضى الخلقية فى وجه البركة انتشاراً عظيما ، وكانت الحكومة تباركها وتشجعها ، وترعاها وتؤيدها . قال الجبرتى : « واعتكف المترجم — يعنى الأمير رضوان — على لذاته وفسوقه وخلاعاته وترهاته . وأنشأ عدة قصور وبالغ فى زخرفتها وتأنيقها خصوصاً داره التى أنشأها على بركة الأزبكية . فكان ينتقل فى تلك القصور ولا سيما فى أيام النيل . ويتجاهر بالمعاصى والراح والوجوه الملاح . وتبرج النساء ومخاليع أولاد البلد ، وخرجوا من الحد فى تلك الأيام . ومنع أصحاب الشرطة من التعرض للناس فى أفاعيلهم ، فكانت مصر فى تلك الأيام مراتع غزلان ، ومواطن حور وولدان ، فكأنما أهلها خلصوا من الحساب ورفع عنهم التكليف والخطاب . وقصدته الشعراء ، ومدحوه بالقصائد والمقامات والتواشيح ، وأعطاهم الجوائز السنية ، وداعب بعضهم بعضاً فكان يغرى هذا بهذا ، ويضحك منهم ويباسطهم. واتخذ له جلساء وندماء ، منهم الشيخ على جبريل ، والسيد حمودة السديدى ، والشيخ مصطفى اللقيمى الدمياطى صاحب المدامة الأرجوانية فى المدائح الرضوانية. وامتدحه العلامة الشيخ يوسف الحفنى بقصائد طنانة . وللشيخ عمار القيروانى مقامة مدحا فى المترجم ، ومداعبة للسيد حمودة السديدى المحلاوى . وأجابه بأبلغ منها مقامة وقصيدة من رويها أديب العصر الشيخ قاسم بن عطاء الله المصرى ، والأديب الفاضل الشيخ عبدالله الإدكاوى ، والعلامة السيد قاسم التونسى . وألف فيه الشيخ عبدالله المذكور كتابا سماه : « الفوائح الجنانية فى المدائح الرضوانية » جمع فيه ما مدح به الأمير رضوان من قصائد ولطائف وتواشيح . »

وقال الجبرتى مشيرا إلى قصور هذا الأمير : « أنشأ قصراً فى الأزبكية له قباب عجيبة الصنعة ، منقوشة بالذهب واللازورد ، والزجاج الملون والألوان الزاهية والصنائع الدقيقة .. وبنى قصراً آخر مطلا على الخليج الناصرى وبوسطه بحيرة تمتلىء بالماء من أعلى وينصب منها إلى حوض من أسفل ويجرى إلى البستان فى سقى الأشجار : وبنى قصرا آخر بداخل البستان مطلا على الخليج . فكان يتنقل بين هاتيك القصور وبخاصة فى أيام النيل . »

هذا بعض ما ذكره الجبرتى عن الأمير رضوان . وقد كان أحد قصوره يقع فى ميدان العتبة الآن . وتداولته الأيدى بعد موته حتى دخل فى حوزة عباس باشا الأول فأعاد بناءه وسماه « قصر العتبة الخضراء » ومن هنا أخذ الميدان اسمه .

ويبدو من سيرة رضوان وسلوكه وأخباره أنه تشبه ببعض خلفاء بنى العباس ، وحاكاهم فى حياتهم الخاصة . فسكر وعربد ، وأحيا الليالى بالرقص والغناء ، ونادم الأدباء والشعراء ومنحهم جزيل العطاء .

وقد شيد الأمير رضوان قصراً بجوار قصره بالأزبكية لطبيبه الخاص على بن جبريل المتوفى سنة ١٧٥٣ وكان على ماهرا فى الطب ، ولذلك عين شيخاً لدار الشفاء بالمارستان المنصورى .

* * *

ومن أدباء وجه البركة الذين ذكرهم الجبرتى : قاسم بن عطاء الله المصرى المتوفى سنة ١٧٨٥ .

كان قاسم يعرف بالزجال لإتقانه فن الزجل بحيث لم يكن أحد من أدباء عصره يجاريه فى هذا الفن . وامتاز بموهبته فى ارتجال الشعر ، ونظم كثيراً من الأغانى

التى تداولها المغنون فى عصره وذاعت وانتشرت بين النـاس . وله مزدوجة طويلة مدح بها الأمير رضوان ، بدأها بوصـف حدائق الأزبكية وما فيها من أشجار وأطيار ، ورياض وغياض ، وجداول وورود . وتكلم فيهـا عن الغرام وجمال الخدود والعيون والشعر ، والعناق والتقبيل ، والأوقات الطيبة التى قضـاها بين الكاس والطاس فى أحضان هذه الطبيعة الفاتنة . فمن ذلك قوله :

رَوْضٌ بِهِ ماءُ الحيـاةِ جارِى ... خُضْرُ النَّباتِ مِنْه بالجَوارِى
فيـهِ خيـالُ الوردِ باحمِرارِ ... يُرَى لَهُ فى المـاءِ زَنْدٌ وارِى
وعَجَبٌ فى المـاءِ قَدْحُ الزَّنْدِ

حديقَةٌ بهـا السُّرورُ مُحْدِقُ ... جَدْوَلُها مُسَلْسَلٌ مُنْطلِقٌ
فى جَوِّها نَجْمُ الزُّهورِ مُشْرِقُ ... وبانُها طَوْراً يَميلُ وَيَسْرِقُ
مِنْ وَجْنَةِ المـاءِ احمِرارَ الوَرْدِ

بادِرْ صَبُوحَ رَوْضَةِ الزُّهورِ ... فأبْرَكُ الأشياءِ فى البكُورِ
وَرِدْ عَلَى اللَّذَّاتِ والسُّرُورِ ... واتْرُكْ هَوَى وَساوِسِ الصُّدُورِ
فَمَنْهَلُ اللذاتِ عذبُ المَوْرِدِ

ما أحْسَنَ الصَّبُوحَ فى الصباحِ ... والسُّكْرَ فى رَوْضِ الرُّبَى ياصاحِ
على خُـدودِ الوَرْدِ والتُّفَّاحِ ... والرِّيحُ تُدْنِى مَبْسِمَ الأقاحِ
لِلَثْمِ هـاتيكَ الخُدودِ الوَرْدِ

والوُرقُ مُذْ غَنَّتْ على الميدانْ بِلِينِ قَدٍّ ماسَ غُصْنُ البانِ
والآسُ فَوْقَ وَجنَةِ النُّعمانِ مَن ذا رأى الجَنَّةَ فى النِّيرانِ
عَجِبْتُ لِلتَّأليفِ بَيْنَ الضِّدِّ

وانظُرْ إلى تَلَهُّبِ الشَّقِيقِ غَيْظاً على نَيْلُوفَرٍ غَرِيقِ
يُومِى لِبِنْتِ الكَرْمِ بالتَّصْفِيقِ وملْ إلي الرُّمَّانِ بالتَّحْقِيقِ
تَرَاهُ فى صَدْرِ الرُّبَى كالنَّهْدِ

ثم استطرد فوصف الخمر فى مجلس شراب قضــــاه بين تلك الحدائق الغناء، فقال:

لِلّهِ ما أبْهَى وما أسْــنَاهَا فى كأسِها كالشَّمْسِ فى مَرآهَا
يَسْعَى بها البَدْرُ وقَدْ أدْناها مِنْ شَفَتَيْهِ اللُّعْسِ ما أحْلاَها
إذْ مُزِجَتْ مِنْ رِيقِه بالشَّهْدِ

شُعاعُها سَــطا على النَّدمانِ ساوَى شُــجاعَ العَقلِ بالجَبانِ
ومالَتِ الحَمــراءُ فى الميدانِ بَيْنَ صُفوفِ صُحْبَةِ القِنَانِ
كأنَّهــا مِنَ الدُّما فى بُرْدِ

مَليكَةٌ لَطِيفَــةُ المِزَاجِ تَختالُ فى بُرْدٍ مِنَ الدِّيبَاجِ
على جــوادٍ أشْهَبِ الزُّجاجِ بِبَهْجَةِ احْمِرارِها الوَهَّاجِ
تَحْكِى خُدُودَ قاتِلى بالصَّدِّ

لاَ تُنكِرُوا بَعْدَ الحِجَى جُنونِى تَهَتُّكِى مِنْ ذَلِكَ المَصُونِ
وَحدِّثُوا إنْ تَصِفُوا شُجُونِى بِهِ عَنِ البَحْرِ وَعَنْ عُيونِى
بِدَمْعِهَا لَمْ تُطفِ نارَ وَجدِى

أَبحتُهُ قَلْبِى وَجَفنِى سَكَنَا لَمَّا أرانِى مِنْهُ وَجهاً حَسَنَا
وَطَرْفُهُ السَاحِرُ لَمَّا أنْ رَنَا بِسِحْرِهِ كَلِيمَ قَلْبِى إفْتَتَنَا
وَلَمْ يَجِدْ عَنْ طَوْعِهِ مِنْ بُدٍّ

فإذا تأملنا فى هذا الشعر وجدنا الشاعر قد صور هذه البيئة تصويراً مأخوذاً من واقع الحياة فيها ، لا من وحى الخيال ، ولا من وحى التقليد للقدماء وترديد أقوالهم ومعانيهم :

ونلاحظ البساطة فى الأسلوب ، والسهولة فى التعبير . واتخاذه الأسلوب القصصى والميل إلى الحوار وتنوع الأساليب . فمرة يتخذ أسلوب الخطاب ، ومرة أسلوب الغائب ، ومرة أسلوب المتكلم .

وقد شبه الشاعر الخمر بالملكة الحسناء ، ارتدت ثوبا من الحرير ، وامتطت جواداً من الزجاج الأشهب . وبدت فى احمرارها الصارخ كأنها خدود محبوب امتنع عن عاشقه وأعرض عنه حينما هم به .

كان قاسم محباً لمجالس اللهو والأنس ، يجتمع مع أصدقائه من أدباء عصره كابن الصلاحى ، وجودة السديدى ، ويوسف الحفناوى فى قصر الأمير رضوان أو فى حدائق الأزبكية أو فى المقاهى والحانات بوجه البركة أو فى منزل صديق لهم فى تلك الناحية . ولا يقعدهم عن هذه المجالس برد ولا مطر . ويمضون وقتهم

فى تناول الخمر وارتجال الشعر ، وفى تبادل الملح والنكات . مثال ذلك أن قاسما حضر أحد تلك المجالس وكان الوقت مطيرا ، فقال ابن الصلاحى مرتجلا :

لِقُدومِكُمْ ضَحِكَ السَّما ... ءُ فَعَلَّمَ العَيْنَ البُكَا
ما ذَاكَ إلاَّ أَنَّهُ ... لِنَوالِ كَفِّكَ قَدْ حَكَى

فأجابه قاسم فى الحال :

أَفْدِيكَ بالعَيْنَيْنِ يَا ... نَجْلَ الصَّلاحِى مَعَ الذَّكا
هَطَلَ الغَمامُ كأنَّهُ ... لِعَزِيزِ جاهِك قَدْ شَكا

ومن شعراء وجه البركة فى ذلك العصر : محمد بن شبانة المتوفى سنة ١٧٩٥ ونرى أثر البيئة الماجنة يظهر فى هجائه للشعراء والأدباء . فمن ذلك ما أوردناه له من هجائه لقاسم بن عطاء الله . ورأينا كيف أنه نسب قاسما إلى بيت « كويك » ووصفه بأنه قواد خطير . وقد ردد هذه الشتائم فى شعر آخر ، مثال ذلك .

لَوْ حَلَّ فى حَرَمِ الوَزِيرِ ... مُصاحِباً وَرَأَى غُلامَهْ
لَمَضَى بِهِ لِأَخِى الهَوى ... فى غَفْلَةٍ يَقْضِى مَرامَهْ

* * *

ومن أدباء تلك الناحية : جودة السديدى الحلاوى ، وكان من ندماء الأمير رضوان . وله مقامة فى الهجاء :

« . . فلما وجدنى ذلك الأبون الملعون ، احترت فى حاله الزنيم المحزون ، قال :

هذا عمار الكافر القواد ، من تعلم من فسقه سائر العباد ، الملتحف برداء الفساد . هذا الذي جلب المسبة لبلده ، هذا الذى لايتحاشى أن يقود على أخته وأمه وولده. هذا الذى أشاد لبيت التعريض الدعائم . . . »

ومن شعره فى الهجاء :

مَنْ فاقَ إبليسَ مَنْ يُهجَى الزّمانُ بِهِ
مَنْ حالُه فى الوَرَى بالفِسْقِ مُشتَهِرُ
مَنْ عَادِمُ الدِّينِ والإسلامُ فاقِدُهُ
مَنْ أهلُهُ ذو خَنا بالحقِّ قد فَجَرُوا
مَنْ مَنْهَلُ الفِسْقِ مَنْ يَفْنى المِدَادُ ولاَ
تُحْصَى خبائِثُهُ مَنْ فِيه تَقتَصِرُ
يا فاجراً قد غَدا أعمَى البَصِيرَةِ مَنْ
صارَتْ خَبائِثُهُ للفِسْقِ تحْتَكِرُ

وأثر بيئة وجه البركة فى نثر حودة وشعره لا يحتاج لإيضاح ، فهو أظهر من أن يدل عليه . وهذه الشتائم وذلك السباب هو مما نسمعه من سفلة الناس ورعاعهم وحرافيشهم بمقاهى وجه البركة .

ولبيئة وجه البركة أثر عظيم فى شعر المجون الذى انتشر فى هذا العصر انتشاراً واسع المدى .

وهناك نوع من أدب وجه البركة لايمكن نشره . وهو من غير شك صورة صادقة لحياة الدعارة والمجون التى أصبحت طابع تلك الجهة .ويعتبر الإدكاوى فى هذا الأدب الماجن داعية من دعاة الفسق والفجور ، ومروجا للاباحية الجنسية والفوضى الخلقية ،

وهو متأثر بهـذا المحيط ومؤثر فيه الى حد كبير ، فقد كان الناس يتداولون هـذا الأدب الماجن فى مجالسهم ومنتدياتهم . وفيـــه مافيه من عبارات نابية وألفاظ داعرة ، وجمل مكشوفة مثيرة للأعصاب ، باعثة للشهوات ، محركة للغرائز الحيوانية .

* * *

ومن شعراء وجه البركة : مصطفى أسعد اللقيمى الدمياطى المتوفى سنة ١٧٥٥ وقد وصفه الجبرتى بقوله : « أفضل النبلاء، وأنبل الفضلاء ، بلبل دوحة الفصاحة وغريدها ، من انحازت له بدائعها طريفها وتليدهـا . ومن محاسن كلامه ، وبديع نظامه : [المدامة الأرجوانية فى المدائح الرضوانية] التى مدح بها الأمير رضوان . »

ومن شعره فى مدح الأمير المذكور قوله :

وهـاتِ لى حـديثَ الازبكيـهْ
وما حَـوتْ أدواحُهـا الزَّكيَّهْ
حُسْناً زَهتْ أرجاؤهـا السَّـنِيهْ
إذْ لاحَ فى غُـرَّتِهـا البَهِيَّهْ
قصورُ رَضـوانَ العُلا والمجدِ
يا حَبَّـذَا معاهِدٌ حِسـانُ
يُغْنِيكَ عن وَصفِى لهـا العِيَـانُ
قد حَلَّ فيهـا الحُـورُ والوِلْدانُ
حَصباؤُهـا اليـاقوتُ والمرجانُ
فانظرْ تَراهـا جَنَّةً كالخُلْدِ
فـكَمْ بِهـا مِنْ دَوحَـةٍ أنِيقَـهْ
ورَوْضَـةٍ أغصـانُها وَرِيقَـهْ

وَرَبْوةٍ أنهــارُهــا غَــــدِيقَهْ
وَمَرْجَـةٍ أزهـارُهـا عَـبِيقَـــهْ
مِنْ نَرْجِسٍ وَسَوْسَنٍ وَوَرْدِ
تَزْهُو بِهـا حـدائِقُ الأزهــارِ
عن طِيبِ نَفْحِ عَرْفِهـا المِعْطارِ
تُعِيدُ نَشْرَ طَيِّهـا وَتُبْـدِى

كان الشعراء حينما يصفون بركة الأزبكية وحدائقها يقفون طويلا أمام المناظر الطبيعية المختلفة . ولا يتركون صغيرة ولا كبيرة إلا أحصوها وتحدثوا عنها وأشبعوا القول ووفوا بالموضوع . وقد ساعدتهم طبيعة هذه المزدوجات على ذلك . فهى لا تتقيد بقافية واحدة . بل تسير حرة طليقة كما ترى . والمزدوجات تحتمل الأسلوب القصصى ، وتمكن الشاعر من الإسهاب وإشباع القول فى غير ضعف ولا تكلف ، ودون أن يدخل على القارىء الملل والسأم .

* * *

ومن العائلات العريقة التى سكنت الأزبكية ، العائلة البكرية ، فقد كانت لها عدة قصور فخمة تطل على البركة . وكانت هذه القصور كعبة للأدباء والشعراء المصريين والأجانب ، يسعون إليها ، ويقفون بعتباتها ، حيث يجدون من كرم أصحابها ما يطلق ألسنتهم بمديحهم ، والإشادة بفضائلهم ومناقبهم .

ومن زاروا البكريين ونزلوا فى ضيافتهم ، عبدالغنى النابلسى من رجال القرن السابع عشر . قال :

« ... لم نزل سائرين إلى أن وصلنا إلى منزل الهُمام بَرَكَةِ الأنام الشيخ زين العابدين البكرى الصديقى . فتلقَّانا بصدره الرحيب وجلست عند حضرته حصة من الزمان فى مجلسه المطل على بركة الأزبكية ذات الروح والريحان ، التى فيها نَفْحَةٌ من نَفَحاتِ الجنان . وتذاكرنا معه فى بعض المسائل العلمية والمطارحات الأدبية . وقد أنزلنا الشيخ فى دار لِصْقَ دارِه بحيث لم نخرج عن ظلِّهِ وجِوَارِه . »

وقال : « ... وكان الشيخ زين العابدين قد دعانا فى ذلك اليوم إلى ضيافته . وكان المجلس حافلا بأفاضل العلماء وأعيان الكبراء . وحضر السماع وتحركت الآلات ، وسكنت النفوس والأصوات . ولم نزل فى ابتهاج وسرور ، ومؤانسة وحضور حتى مُدَّتِ الموائد وجرت العوائد . وكان ذلك فى المجلس المطل على بِرْكَةِ الأزبكية . ثم بعد صلاة المغرب بالجماعة فتح باب هاتيك القاعة . فدخلنا من دهليز مفروش بأنواع الأحجار . وقد أُوقِدَتِ الشموع حتى كان ذلك الليل كأنه النهار ، فوصلنا إلى ميدان مفروش بالرخام والمرمر فى ألوان كأنه قلائد العقيان . وهناك إيوان يقابله آخر أوسعُ من صدر الكرام ، وأجلُ من صفحات الوجوه ، وأعطرُ من الزهر فى الأكمام . ورأينا الثُّرَيَّات من القناديل المشعولة ما تبقى ببهجته النفوس والعيون مشغولة . وأطلقت مباخر العود ، وقامت مواسم الشهود ونادى لسان الحال حين خاطب وقال :

يا صَاحِبَ العُودَيْنِ لا تُهْمِلْهُمَا
حَرِّكْ لَنا عُوداً وَحَرِّقْ عُودا

إلى أن قطعنا حصة من مسافة الليل ، وتقلّص ضوء الثريا فشمر للمغيد الذيل ، فقدمت المآكل السكريات ، والحلاوات الشهيات . ثم قدم العود والمبـ

المشهور ، وانهَلَّ مطر ماء الورد من تحت غيم البخور ، وقد تفرق الجمع ، ووقف نور الشمع . »

* * *

وقد نهض الغناء بوجه البركة نهضة واسعة المدى . وكثر المغنون والمغنيات ، والضاربون على الدف والطار والعود والأرغول ، والماهرون فى استخدام المزمار .

ويقول بعض المؤرخين إن نهضة الغناء المصرى ترجع إلى نهاية القرن السابع عشر ، حينما قدم إلى القاهرة الملحن الشامى المشهور شاكر الحلبى . فهو الذى علم المصريين فن التلحين وكانوا يجهلونه جهلا تاما . وهذا الفن الذى أدخله شاكر إلى مصر هو ما تبقى من الغنـــاء العربى القديم ، لم يزد عليه شىء . وقد رحب المصريون بالشيخ شاكر وأكرموا مثواه وأقبلوا عليه يأخذون منه ويتلقون عنه . وخيل إليهم أنهم حصلوا على كنز نفيس . واحتكر تلاميذ الشيخ شاكر هذا الفن وضنوا به على غيرهم . فانحصر الغناء فى دائرة ضيقة فى أول الأمر . ولكنه انتشر بعد ذلك بفضل الحاجة إلى المطربين . فقد كثرت الموالد وظهرت طبقة المواالدية الذين ينتقلون من بلدة إلى بلدة ، ومن قرية إلى قرية ، يحيون الليالى فى الموالد ، وفى حفلات الزواج . وظهرت كذلك طائفة المنشدين الذين ينشدون شعر التصوف والمديح النبوي فى حلقات الأذكار .

واحتاجت المقاهى الكثيرة الى المغنين مما دفع أفراد تلك الطائفة الى الإجادة والإتقان ليحوز كل منهم قصب السبق ، فتنهال عليه الأرباح الوفيرة .

* * *

واتصل المغنون بالشعراء يلتمسون منهم نظم المقطوعات الغنائية المناسبة للعصر

التى يعيشون فيه . وقد لبى الشعراء هذه الدعوة . ونظموا كثيراً من الأدوار الغنائية التى تسيل رقة وعذوبة .

وفى تراجم معظم شعراء هذا العصر نجد مثل هذه العبارة : « وله موشحات وأزجال ومقطوعات عديدة مشهورة بين أرباب الفن والأغانى ، ومنتشرة بين الناس يتغنون بهـا فى أوقات سمرهم » . ومن الشعر الغنائى الذى اشتهر فى هذا الوقت ، قول الشيخ عبد الله الشبراوى :

وَحَقِّكَ أنتَ المُنىَ والطَّلَبْ ... وأنتَ المُرَادُ وأنتَ الأرَبْ
وَلِى فِيكَ يَاهَاجِرِى صَبْوَةٌ ... تَحَيَّرَ فى وَصْفِها كُلُّ صَبْ
أبِيتُ أسَـامِرُ نَجْمَ السَّمَا ... إذَا لاحَ لِى فى الدُّجَى أو غَرَبْ

ومن أغانى الشبراوي :

والله مليح وجميل وكامل الأوصاف ... وأنا أحبـه ملو قلبى وأهـواه
لطيف ظريف الشكل مالوش مثيل ... فى وقتـه أما كلامه ما أحـلاه

وقوله :

شـفته على غفـله قوى حبيته ... أسمر ومن طبعى أحب الاسمر
ميلت ناغشـته لقيت له رقه ... ولطف زايد والبشاشـه أكتر
يا أهل الأدب والله وحق المختار ... ماشفت عمرى فى الجمال مثـله
قمر مصور مانظرتش حسـنه ... فى حد من بعده ولا من قبله

ومن أشهر مغنى مصر فى أوائل القرن التاسع عشر : مصطفى الصيرفى وإبراهيم الوراق ، والقدم ، وحسن قشوة ، والحبانى .

وكان التنافس على أشده بين الصيرفى وحسن قشوة . وقد انتصر الخشاب الصيرفى ، وقال فى ذلك شعراً نذكر منه :

صَوْتٌ رَقِيقٌ وَلَحْنٌ حِينَ يُعْرِبُهُ
يَأْتِى بِمَا عَنْهُ تَعْيَا طَاقَةُ البَشَرِ
فَلَوْ تَغَنَّى لِمَيْتٍ مَاتَ مِنْ قِدَمٍ
جَرَتْ بِهِ الرُّوحُ جَرْىَ الماءِ فى الشَّجَرِ

وعرّض بمنافسه فقال :

مارَامَ يَحْكِيه فى إتقانِه حَسَنٌ
إلاَّ وَجَاءَ بِقُبْحٍ غَيْرِ مُنْحَصِرِ

* * *

وانتشرت فى وجه البركة أمكنة خيال الظل . وكانت تعرض فيها مسرحيات مبسطة يغلب عليها التحريض على الفسق ، والدعوة إلى ارتكاب الفاحشة . ومن هذه المسرحيات التى كانت تعرض على الجمهور مسرحية « عَلَم » وتتألف شخصياتها من :

(١) فتاة جميلة خليعة من بنات وجه البركة اسمها « علم »

(٢) شاب سكران اسمه » تقادير »

(٣) بائع قناديل « مصابيح »

(٤) ضارب رمل مغربى

تبدأ المسرحية بمرور بائع القناديل مناديا على بضاعته بصوت رخيم . فتسمعه الفتاة « علم » وهى مضطجعة فى سريرها ، فتناديه قائلة :

علم: عـــم يا بيـاع أوصف لى بتاعك

وفى هذه اللحظة يمر شاب ثمل يتمايل يمنة ويسرة من كثرة ما شرب من الخمر فيسمع صوت علم ، فيقف ويتغنى بصوت شجى .

تقادير السكران:

الذكر اللى معـاى لم يكن فى الوزن مثله
لما شافك سال دممه لما شافك شت عقله
لمسـكى راسه بايدك تنظرى شغله وفعله
إنما من حسن طبعه تلتقيه فى الليل يُفـاْرْ
بخت من جاله وزاره فى قيامه لم يقصر

(ثم سكت تقادير ، وكأنه أفرغ كل ما فى جعبتـه ولم يعد معه شيء يقوله . فأسند ظهره إلى الحائط) وتكلم بائع القناديل رافعاً صوته بغنـاء عذب جميل ، يخلب القلوب ، ويجذب النفوس .

بائع القناديل :

إذا رغبت يا علم شمعدان حاضر معى لأجل اجتماع العزاز
تعالى وشوفى بضـاعة زمان تحيرت فيها بنات الحجاز

(علم تغادر فراشها وتبادر بالنزول إلى الشارع لتعاين القناديل بنفسها وتنتقى

منها ما يعجبها . وقبل أن تنزل ، وقفت فى نافذة حجرتها وأخذت تغنى بصوتها الطرب المرقص) .

علم :

سيدى قف لما انزل واشوف	إن كان معك قنديل جميل
حضر معك قنديل بنور عظيم	فى الضيّ أنواره كشمع الفتيل
لكن يكون أبيض مضلع تخين	أفرح وأتهنى إن كان طويل

ثم تترك النافذة وتنزل تتهادى فى مشيتها وقد ارتدت ثوباً أحمر . وأخذ البائع يتغنى مرحباً بها ، فقال .

بائع القناديل :

ياللا يا علم انزلى واشترى	دا قصدى منك تمام الجميل

علم تقف أمام البائع وتغنى بقولها :

أنا مرادى يا خليلى منك	قنديل احطو على فرش عالى
أحبك إن كان ينور ضياه	فى مجلس الأحباب عظام الجمال
لأن العذارى هنا يحضروا	فى العيد يهنونى وأنا كالغزال
وقف وفرجنى على اللى معاك	أحبك إن كان مالوش مثيل
وأطلعك عندى فى قصرى قوام	وازهك على تهدى وخصرى الجميل

وقد حضر الرمال هذ المحاورات ، فتدخل فى الموضوع ، وعرض على الفتاة أن يكشف لها عن طالعها ، ويعرفها بمستقبلها ، ويخبرها بما سيحدث لها من أفراح وأحزان .

وليس من الضروري أن نتابع المسرحية إلى نهايتها ، لما فيها من فحش . وإذا كان هدفها هو إثارة الغرائز الحيوانية ، فقد تحقق فيها هذا الغرض إلى حد بعيد . ومن العجيب أن مؤلفها ختمها بامتداح خير الورى الذى أتى بالهدى مبشراً ، ونذيراً مطهراً .

ولم يكن عند أدباء هذا العصر أى مانع من أن يبدأوا إنتاجهم بذكر اسم الله والصلاة على نبيه وأصحابه والتابعين له بإحسان . ثم ينتقلون من ذلك مباشرة ودون أى تمهيد إلى ذكر أقبح أنواع المجون ، والتحدث عن المعاصى والموبقات وإيراد أسماء العورات . ثم يختتم هذا كله بالصلاة على النبى الهادى .

* * *

وقد نشطت الحركة التجارية بوجه البركة نشاطاً عظيماً . فهذا عطار يبيع الحناء والعطور ، وجوزة الطيب والبخور واللادن . وهذا بائع فطير بجواره إسكاف ، على يمينه حداد بالقرب منه سمكرى ، بجانبه جزار بإزائه حلاق وبقال وهكذا . والسقاؤن يروحون ويغدون . والفرانون منهمكون فى عملهم ليل نهار . وروائح المأكولات منتشرة فى الجو ، وقد اختلطت رائحة الطعمية برائحة الشواء . وباعة الفواكه جالسون فى الشوارع والطرقات . وقد وصف الجبرتى حالة البلاد قبيل الغزو الفرنسى ، فقال : « وكان الوقت غاصاً بالأكابر والرؤساء وأرباب الفضائل ، والناس فى بلهنية من العيش ، وأمن من المخاوف والطيش ... »

* * *

وامتاز وجه البركة بأنه كان موطناً للصوص والمحتالين . وكانت أزقته الضيقة وحاراته الملتوية وكراً عظيماً للنساء اللاتى احترفن السرقة إلى جانب الدعارة .

وقد اهتزت مدينة القاهرة ذات يوم حينما اكتشفت عصابة خطيرة من النساء الساقطات أطلقت على نفسها اسم « بقر الوحش » .

كانت المرأة من هذه العصابة تخرج متجولة فى شوارع وجه البركة ، فإذا وقعت عينها على رجل تتوسم فيه الغنى ، احتكت به وتعرفت عليه ، وصحبته إلى منزلها الذى يقع بين أزقة ضيقة ملتوية متشابهة ، حتى يصعب على رجال الحكومة أن يهتدوا إليه . فإذا دخلت منزلها مع ضحيتها ، بادرت بخلعت ملابسها ثم أحضرت الخمر وملأت الكأس وقدمته له ، حتى إذا سكر وفقد وعيه دعت خادمها فيبادر ومعه وسادة يضعها على وجه السكران الذى يكون متمدداً فى الفراش . ويجلس عليها ويظل كذلك حتى يموت الرجل . وحينئذ تنهض المرأة فتجرده من ملابسه ونقوده ، وتدفنه فى منزلها . وسميت ببقر الوحش ، لأن أفرادها كالوحوش المفترسة . وحينما اكتشف أمر هذه العصابة ، صدر الأمر بإعدام جميع أفرادها .

وكانت هناك عصابات أخرى منها عصابة « البقر السارح » وتتألف من نساء ساقطات ، يختلطن بالناس ويذهبن معهم إلى بيوتهم . وقبل كل شيء يطلبن الخمر . ويجلس صاحبها ليشرب معها . وهي تتظاهر بالشرب . فإذا سكر نهضت وعرفت أسرار المنزل ، وحملت ما خف حمله وغلا ثمنه وانصرفت آمنة مطمئنة .

ومن هذه العصابات ، عصابة « ربات المزارى البيض » ومهمة أفراد هذه العصابة ، أن تندس المرأة فى وسط الازدحام وتمد يدها إلى الجيوب وتسرق مافيها ، أو تذهب إلى الدكاكين وتتظاهر بالشراء ، ثم تنتهز الفرصة وتسرق ماتشاء ، وهذه الطائفة تسمى أيضاً « البقر الحلاب » لأن نساءها يحلبن الناس بهذه الكيفية .

وهذه العصابات كلها تتألف من الحميدية والغجر . وهناك طائفة من الصبيان اسمها « الشـــموطة » وهؤلاء مختنثون و لصوص . وطائفة الخطافين ، وأكثر ما يخطفون العمائم . وكانوا ينتهزون فرصة مرور الإنســـــان بمفرده فى جهة نائية وحينئذ ينقض عليه شخص ويخطف عمامته ويختفى فى لمح البصر .



الفرنسيون فى وجه البركة

لما دخل الفرنسيون مدينة القاهرة ، وقع اختيارهم على وجه البركة ليكون مقراً لهم ومقاماً .

فنزل نابليون فى قصر الألفى . وكان هذا القصر يشغل مساحة واسعة تبدأ من شارع الألفى وتنتهى قبل شارع قنطرة الدكة . وقد فرغ من بنائه قبل وصول الفرنسيين بشهرين . وأنفق الألفى على بنائه مبلغاً طائلا واستعان ببعض المهندسين والعمال الإيطاليين . وأقام من خارجه أسوارا مرتفعة سميكة لم تؤثر فيها القنابل . وفى داخله حديقة غناء بديعة التنسيق بها نافورات جميلة ذات أحواض من الرخام ، وبها أزهار وأشجار مختلفة الأشكال والألوان . وبها طيور جميلة ، بعضها للزينة وبعضها للأكل . وبأعلى السور حجرات خاصة لإقامة الحراس المكلفين بحراسة القصر ليلا ونهارا . وبالحديقة تكاعيب من العنب وأكشاك يظللها شجر اللبلاب ، كان الألفي قد أعدها ليقضى بها أوقات فراغه مع خاصته والمقربين لديه . فأراد الله غير ذلك .

وكان القصر يتألف من طابقين . وله أبواب ضخمة من الخشب الهندى مصفحة بالنحاس الأصفر . وأرضه مبلطة بالرخام الملون . ونوافذه مسدة بالزجاج الملون ومشغولة بالحديد . وللخدم قسم خاص ، وللحريم جناح منفرد .

والقصر كله مفروش بالأبسطة الفاخرة . والقناديل معلقة في كل مكان . وبه عدد كبير من الشمعدانات الواردة من بلاد الإفرنج ، وكل شمعدان يتسع لمائة شمعة .

وبه مخازن خاصة للمأكولات والأدوات المنزلية والأثاث والملابس . ومخازن للسلاح وأدوات القتال .

ولما انتهى إعداد القصر من حيث البناء والتأثيث ، أقام صاحبه احتفالا عظيما بمناسبة انتقاله إليه ، فدعا الأمراء والأعيان ومد لهم سماطا هائلا حوى كل مالذ وطاب . وأشعلت القناديل والشمعدانات ،فخيل الى الحاضرين أن الوقت نهار مع أنهم كانوا فى الليل . ولما فرغوا من الأكل ، انتقلوا إلى بهو متسع لمشاهدة الراقصات وسماع المغنيات .

وبعد أسبوعين من هذا الاحتفال ، سافر الألفى الى مديرية الشرقية . وفى مدة غيبته نزل الفرنسيون فى الإسكندرية ، وساروا منها إلى القاهرة . ولما سمع الألفى بذلك غادر مصر الى الشام .

واستقر نابليون فى هذا القصر الفخم . وسكن أعضاء هيئة القيادة فى القصور المطلة على البركة . وكان من نصيب الجنرال « مجلون » أن يستولى على قصر مراد بك ، أمام تمثال إبراهيم باشا حاليا . وسكن بوسليك مدير الحدود ببيت البكرى القديم (بالقرب من دار الأوبرا حاليا)

* * *

وحينما استقر الفرنسيون بوجه البركة ، شرعوا يدخلون بعض التنظيمات الحديثة كالعناية بكنس الشوارع ورشها بالماء ، وتحريم إلقاء القاذورات أمام المنازل والدكاكين . وإلزام كل شخص بأن يضع قنديلا على واجهة منزله أو دكانه . ثم هدم الفرنسيون كثيراً من المبانى ليوسعوا بعض الشوارع ، وليوجدوا بعض الميادين . فمدوا طريقا يبدأ من قصر الألفى ويمر بباب الحديد ثم يتجه مخترقا حى الفجالة فحى الظاهر فجامع الظاهر وينتهى بميدان الحسينية . وهذا الطريق مازال

موجودا . وقد أعجب الجبرتى بنظام العمل الذى اتبعه الفرنسيون فى شق هـذا الشارع وتمهيده ورصـفه ، كما أعجب بالأدوات التى استخدمت فى ذلك ولم تكن معروفة عنـد أهل مصر . ولما انتهوا منـه زرعوا الأشجار على جانبيه . وكانت الضرورة الحربية هى التى دفعت المحتلين الى شق هذا الطريق وتمهيده بكيفية تجعله صـالحا لمرور العـربات الـكبيرة الضخمة المخصصة لحـمـل المدافع والذخائر والمؤن والجنود .

ومهدوا شارعا آخر يبدأ من قصر الألفى ويسـير إلى شارع المغربى حالياً ثم يتجه الى أبى العلاء :

وشـيدوا مسرحا ضخما بناحية غيط النوبى ، كان يدخله الجنود وعائلاتهم . وتمثل فيه الروايات باللغة الفرنسية .

كما شيدوا مدرستين بالقرب من ميدان الخازندار حاليا لتعليم أبنائهم وبناتهم :

وبنوا عدداً من الورش ، بعضها للنجارة ، وبعضها للحدادة . وأنشأوا أندية وملاعب لجنودهم . كما أنشأوا عدداً من الثكنات ومخازن للوازم الجيش .

وفى بدء الاحتـلال الفرنسى ، اجتهد المحتلون فى إرضاء سـكان وجه البركة بنوع خاص لأنهم يقيمون بينهم : فـكانوا يشترون منهم المأكولات بأكثر من أسـعارها الحقيقية . فأثرى كثيرون من السـكان فى مدة وجيزة . وأقبل الناس وبخاصة الأجانب كالأروام والطليان على السكنى فى حى وجه البركة . كما كثر عدد الأقباط فى تلك الجهة خلال الاحتلال الفرنسى . واشتغل أقباط وفرنجة كثيرون فى الجيش الفرنسى وفى الأعمال المدنية التى كانت تقوم بها الإدارة الفرنسية . ومن هذا التاريخ نجد أن حركة العمران أخذت تزحف الى ناحية الفجالة والظاهر .

وفى ذلك الوقت كثر وجود المكارين فى هذه الناحية . وذلك لأن الفرنسيين رجالا ونســـــاء كانوا مغرمين بركوب الحمير وسوقها ســـــوقا عنيفا مع المزاح والضحك والقهقهة .

وكانت النساء الفرنسيات يخرجن ســــافرات ، ويملأن شوارع الأزبكية وطرقاتها ويتحدثن مع الباعة . وقلدهن كثير من نســاء مصر وبخاصــة هؤلاء اللاتى تزوجن من الفرنسيين . فقد كان الجندى الفرنسى يذهب الى الرجل المسلم ، وينطق بالشهادتين ، ويعلن دخوله فى الإسلام . وبمجرد أن يفعل ذلك ، يطلب من المسلم أن يزوجه بنته ، فيرحب به لأن الجندى الفرنسى قادر على حماية المسلم ، وقادر على الإنفاق على زوجته . وكانت المرأة المصرية تفرح بزواجها من الفرنسى لما تجده عنده من حسن المعاملة وكرم الأخلاق والأدب والاحترام .

* * *

وكان هناك جنود فرنسيون كثيرون لم يتزوجوا ، بل آثروا حيــاة العزوبة . وهؤلاء كانوا يقصدون الى بيوت الدعارة التى انتشرت فى هذه الجهة . وقد فرض الفرنسيون الرقابة الصحية على المشــتغلات بالدعارة . وقيدوا أسماءهن فى سجل خاص . وألزموا جنودهم بالذهاب الى الأماكن المسجلة وذلك حرصاً على سلامتهم من المؤامرات والاغتيالات . ومن هــذا التاريخ اتخذت الدعارة فى مصر شكلا رسمياً وانحصرت بصفة علنية فى وجه البركة . وسجل الفرنسيون أسماء القوادين ، وجعلوهم مسئولين أمامهم عن كل مايقع على الجنود من سرقة وقتل . ولما كان الجندى الفرنسى لا يأمن على نفسه إذا دخل منزلا متسعا ، فلذلك استحسنوا أن تقيم البغى فى دكان ليكون الجندى قريبا من الشارع ، وليمكنه أن يستغيث إذا دعت الحاجة الى ذلك .

وأمروا كل مومس بأن تضع على واجهة محلها مصباحا ، وأن تكتب السعر الذى تحدده لنكاحها . ولما كانت الكتابة باللغة الفرنسية متعذرة فقد اهتدى النوازى إلى حل لهذه المشكلة . فاستخدمن الرموز الدالة على السعر . فتغمس إحداهن يدها فى سائل أحمر ، وتطبعها على واجهة محلها . فإذا ما أبصره الجندى أدرك أنها تأخذ خمسة أنصاف . وإذا وجد شكل يدين فمناه أنها تأخذ عشرة أنصاف . وهذا غير الأتعاب التى يتناولها « الخلبوص » وهو الذى يقوم على خدمة الزوار ويرحب بهم .

* * *

وفى سنة ١٧٩٨ م احتفل الفرنسيون احتفالا عظيما بعيد الحرية فأقاموا بشوارع وجه البركة الأعمدة ، وعلى كل عمود العلم الفرنسى المثلث الألوان . وأقاموا أعمدة أخرى وعلقوا بكل عمود مصباحا ، وشيدوا عددا من أقواس النصر ، ورسموا عليها بعض المواقع الحربية التى جرت بينهم وبين المماليك . وصوروا المماليك فى صورة المنهزمين الفارين ، أو القتلى على الأرض وقد وطئتهم خيول الفرنسيين .

ووقف نابليون على منصة عالية أمام قصره تحيط به هيئة أركان الحرب ، واستعرض جنود الحملة الذين مروا أمامه بكامل معداتهم ، مرتدين الملابس النظيفة الجميلة . وقد دعى الى هذا الاستعراض عظماء المصريين فشاهدوا ما أدهشهم ، ثم جرت مناورة حربية . وفى الليل أقام نابليون مأدبة عشاء فاخرة . وأشعلت المصابيح فى كل مكان بالأزبكية ، وأطلقت الصواريخ ، وخرج الجنود جماعات جماعات ، ينشدون أناشيدهم الوطنية بأصوات مرتفعة . وأمضوا الليل كله فى سكر وعربدة ، وغناء ورقص ، لافرق فى ذلك بين الضابط الكبير والجندى الصغير . فعلى شواطىء البركة وفى حدائقها عقدوا حلقات الرقص والغناء ، ومجالس الخمر واللهو . واشتركت مصريات كثيرات فى هذه الحفلات . وقد

أعجب الفرنسيون بالرقص المصرى الذى تتلاعب فيه الخصور ، وتهتز البطون ، ولذلك كانوا يدفعون مبالغ طيبة للراقصات الفاتنات .

* * *

وقد كان بعض الأدباء المصريين وقت الاحتلال الفرنسى يقضون الليالى فى وجه البركة بين مراقصها ومغانيها . نذكر منهم الشيخ حسن العطار (قبل أن يلى مشيخة الأزهر) فقد اختلط بالجنود الفرنسيين المقيمين بتلك الجهة وعشق بعضهم ، وحفظ بعض مفردات لغتهم ، وأوردها فى شعره ، فمن ذلك قوله :

أقول وصلا ، يقول : نو نو   أقول هجرا ، يقول : سى سى

ومن هؤلاء الأدباء الشاعر المشهور إسماعيل الخشاب . وقد تنافس هو والعطار على غلام فرنسى اسمه « ريج » وأخذ كل منهما ينظم القصائد الغزلية فى هذا الغلام ، يعبر فيها عن عواطفه الفياضة ، وحبه العميق . ويبدو أن الشيخ العطار قد أضر به حب هذا الفرنسى حتى أشرف على التلف . وكان العطار يسكن حجرة بالقرب من الرويعى ، لأنه كان من أسيوط ووفد على القاهرة لطلب العلم . وفى هذه الحجرة ، أمضى ليالى كثيرة مع صديقه الحميم إسماعيل الخشاب . وكانا متلازمين طول وقتهما ، لايستطيع أحدهما فراق الآخر .

ومن قول الشيخ العطار فى الغزل بهذا الغلام الفرنسى :

أمَّا فُؤادِى فَعَنْكَ ما انْتَقَلا

فَلِمْ تَخَيَّرْتَ فى الهَوى بَدَلا

فاعجبْ

يا مُعْرِضاً عَنْ مُحِبِّهِ الدَّنِف
وَمُغْرَماً بالجمالِ والصَّلَف
وَمَنْ بِهِ زادَ فى الهَوَى شَغَفِى
أَمَا كَفَى يا ظَلُومُ ما حَصَلا
حَتَّى جَمَلْتَ الصُّدودَ والمَلَلا
مَذْهَبْ

فعارضه الخشاب بقوله :

يَهْتَزُّ كالغُصْنِ ماسَ مُعْتَدِلاَ
أَطْلَعَ بَدْراً عليهِ قد سَدَلا
غَيْهَبْ

يُزْرِى بسمرِ الرِّماحِ إنْ خَطَرا
ساحِرُ جَفْنٍ لِمُهْجَتِى سَحَرَا
عَلَّمَ عَيْنِى البكاءَ والسَّهَرَا
فكَيْفَ أبغِى بِحُبِّه بَدَلاَ
ولَيْسَ لى عَنْه جارَ أَوْ عَدلاَ
مَهْرَبْ

وفى صداقة العطار والخشاب يقول الجبرتى : « ... يترنمان بمحاسن الغزلان، وما وقع لهما من صد وهجران ، ووصل وإحسان . فكانت تجرى بينهما منادمات

أرق من زهر الرياض ، وأفتك بالمقـــول من الحدق المراض . وهما حينئذ فريدا وقتهما ، ووحيدا عصرهما ، لم يعززا فى ذلك الوقت بثالث، إذ ليس من يدانيهما فضلا عن مساواتهما فى تلك الشئون، التى أربت على الثانى والثالث . واستمرت صحبتهما ، وتزايدت على طول الأيام مودتهما .

« وبعد أن رجع الشيخ حسن العطار من ســــياحته ، مازج المذكور يعنى الخشاب — وخالطه ورافقه ولازمه . فكانا كثيرا ما يبيتان معاً ، ويقطعان الليل بأحاديث أرق من نسيم السحر ، وألطف من اتساق نظم الدرر . »

ويعتبر الشيخ العطار من أدباء وجه البركة . فقد تأثر بالمحيط الذي عاش فيـه إلى حد بعيد ، وانعـكس صـــدى هذه البيئة فى أدبه . وقد وصف بركة الأزبكية ، فقال :

« . . . وأما بركة الأزبكية فهى مسكن الأمراء ، وموطن الرؤساء . قد أحدقت بها البساتين الوارفة الظلال ، والمديعة المثال ، فترى الخضرة فى خلال تلك القصور المبيضة كثياب سندس خضر على أثواب من الفضة . يوقد بها كثير من السرج والشموع فالأنس بها غير مقطوع ولا ممنوع . وجمالها يدخل على القلب السرور ، ويذهل العقل حتى كأنه من النشوة مخمور . ولطالما مضت لى بالمسرة فيها أيام وليالى هن فى سمط الأيام من يتيم اللآلى . وأنا أنظر انطباع صورة البدر فى وجناتها ، وفيضان لجين نوره على حافاتها وساحاتها . والنسيم بأذيال ثوب مائها الفضى لعاب ، وقد سل على حافاتها من تلاعب الأمواج كل قرضاب (١) . وقام على منابر أدواحها (٢) فى ساحة أفراحها مغردات الطيور ، وجالبات السرور . فلذيذ العيش بها موصول ، وفيها أقول .

---

(١) القرضاب : السيف (٢) الدوحة : الشجرة الضخمة

بالأزبكيةِ طابتْ لى مَسَرّاتُ وَلَذّ لي فى بديعِ الأُنسِ أوقاتُ

حيثُ المياهُ بها والفُلكُ سابحةٌ
كأنها الزُّهر تحويها السماواتُ

مَدّت عليها الرَّوَابى خُضرَ سُندُسِها
وغرّدَتْ فى نواحيها حَمَاماتُ

والماءُ حِينَ سَرَى رَطْبُ النَّسيم بِهِ
وحلَّ فيه من الأدواحِ زَهَرَاتُ

كسابغاتِ دُروعٍ فَوقَها نُقَطٌ
مِنْ فِضّةٍ واحمرارُ الوردِ طَمَنَاتُ

وَلِلنديمِ بها عَيشٌ تُساعِدُهُ
على اغْتِنَامِ دواعِيه المَسَرّاتُ

يَرُوحُ منها صَرِيعَ العقلِ حينَ يَرَى
على محاسِنِها دارَتْ زُجَاجَاتُ

وَلِلرِّفَاقِ بها جَمْعٌ وَمُفْتَرَقٌ
لَمّا غَدَتْ وَهِىَ لِلنُّدْمَانِ حاناتُ

* * *

وقد سبق أن ذكرنا أن الفرنسيين فى بدء الاحتلال ، اجتهدوا فى كسب سكان وجه البركة . وها هو العطار يصف موقف سكان تلك الجهة من المحتلين ، فيقول : « أهل هذه الجهة — يعنى جهة وجه البركة — لهم (أى للفرنسيين)

مسالمون ، ولكثير منهم مخالطون ، لم يقع منهم نزاع ولا شر ، ولا كَرٌّ في مقاتلتهم ولا فر . . . »

* * *

وقد سجل العطار زياراته لأصدقائه من الفرنسيين ، فقال متحدثا عنهم وعن الأثر الذي تركته في نفسه تلك الزيارات :

« . . . قد أُشْرِبُوا في قلوبهم حبَّ العلوم الفلسفية ، وحرصوا على اقتناء كتبها ، وإعمال الفكرة فيها والرَّوِيَّة . . يبحثون عمن له بها إلمام ، ويتجاذبون معه أطراف الكلام . ثم لما استقررت بالأزبكية ، وتخلصت من هذه البلية ، ذهبت إلى دار صاحب تسرني رؤْيَتُه ، وتنشرح لمخالطتي له رَوِيَّتِي ورَوِيَّتُه . قد أحرز قصب السبق في ميدان هذه العلوم ، وصار هو المشار إليه في مصرنا بين أرباب هذه الفهوم . فصادفت بالحارة التي فيها مثواه ، وبجانب داره التي بها مأواه ، فتية منهم — يعني الفرنسيين — برزن كالشموس ، وهن يتمايلن تمايل العروس ، بوجوه سَدَل الحسنُ عليها جلبابَه ، وقد صير رماح القدود أعلاما حين أرخى عليها ذُؤَابه . فهي راية تتبعها من العشاق أجناد ، وتميل معها حيث مالت مع الهوى في كل واد . فتطلعت عليهن تطلع الهائم إلى الورود ، ووقفت أنظر إلى حسن تثنِّي هاتيك القدود . ففطن مني إلى ما رُمته ، وعرف المعنى الذي قصدته . فال الجميع إليّ ، وابتدأن بالتحية عليّ . وأراني فتى منهم كتابا ، وجدد معي كلاما وخطابا . فإذا عربيته خالصة من اللُّكْنة ، وألفاظه مُعَرَّاة من وصمة العجنة ، وأخذ يعرف ببعض كتب للأفاضل الأكابر ، وذكر ما تحويه يده من الكتب والدفاتر . وشرع في التعداد والتعريف ، حتى ذكر تذكرة الطوسي والشفاء معبرا عنه بالشفاء الشريف . فخالطني من ذلك العجب ، ورَنَّحتني إليه

نشوة الأدب ، وزاد إعجابي به ، أني حين قلت له إني ضيف بجاركم ألمّ ، أنشدني على الفور :

أمِنْ تَذَكُّرِ جيرانٍ بِذِى سَلَمِ

وأخبرني أنه نقلها من العربية إلى لغته ، وهي من جملة ما استقر بمحفوظته . ثم لما أخذ الحديث منى ما أخذ ، وغلب شيطان المحبة على واستحوذ ، عولت على الانصراف ، وقد خالط تمجيي منه الشغاف .

سألني في البكور إلى داره لأرى ما اجتمع عنده من كتبه وأسفاره . فذهبت للمكان الذى أعدته للمبيت ، وعلمت أني بحسنه رُميت . فتحركت مِنىّ صبوة تقادمَ عهدُها ، وتقوّت عندى نشوة أدب كان قد ضعف أوَدُها . وطفقت طول ليلي سهران ، وأنا برؤية الصباح كالولهان . وحملني عدم الصبر والثبات على أن أنظم فيه هذه الأبيات :

مِنَ الفرنسيسَ ظَبْيٌ سِحرُ مُقلتِه
عنـد المحب له فى القلب تأنيسُ
قد لاحَ فى حُلَلٍ سُودٍ فَخِلْتَ سَنا
صُبحٍ عليه من الأستارِ حِنْدِيسُ
رَوْضٌ من الحسنِ لا تَدنُو إليه يَدٌ
ومطلبٌ بِظُبَا الألحاظ محروسُ
مُهَفْهَفُ القَدِّ قد أرْخَى ذَوائِبَهُ
كأنّه غُصُنٌ فى الرّوْضِ مَغْرُوسُ

ورأى المحبّةَ مِنْ عينىَ فخاطبنى
بدرٌ لفظ بهِ لطفٌ وتأنيسُ
تجانسَ الحُسْنُ فى مرآهُ حينَ غدا
بَيْنَ الكلامِ وبَيْنَ الثَّغرِ تجنيسُ
وصادَ عقلِى بلفتاتٍ فواعجبا
حتى على العقلِ قدْ تسطو الفرَنسيسُ

ثم لما سطع صارم الصبح ، وتقلّص ذيل الليل جنحاً بعد جنح، أسفرت الأمانى عن مرآه ، وتبسم وجه الزمان لى بلُقَاه . فاجتمعت معه فى عصر ذلك اليوم ، وهو مع فتية من هؤلاء القوم ، وكل يعانى غوامضَ المعارف ويقتفيها ، ويُجيل ذهنه فى تحصيل دقائق الأدب ويمتنيها .

فلما استقر بى الجلوس ، أخذن يدرنَ بين المنادمة على سمى حُمَيَّا الكؤس . وأَرَيْنَنِي من الكتب الصغير والكبير ، والنكير عندى والشهير . وكلها فى العلوم الرياضية والأدبية . وأطلعونى على آلات فلكية وهندسية . وتحادثن معى فى مسائل من تلك العلوم . وكتبن عنى بعض هاتيك الفهوم . وسألننى عن حل بعض أبيات البردة ، وهى بأيديهن مكتوبة بالعربى فى نسخ عدة . ثم أريننى من أبيات الشعر نُتَفا ، وسألننى عما دق منها واختفى . وأخبرنى بعضهم أن ببلادهم ديوان المعلقات السبع ، وأن عندهم من دواوين الشعر بلغتهم ما يطرب السمع . وكانوا كلما سألونى عن تفسير كلمة لغوية ، راجعوها فى سفر نفيس ألف فى اللغة على طريقة الجمهرة باللفظ العربى وترجم بالفرنسيس . وكتبت لهم ببعض المجاميع بعض أبيات ، وفسرت لهم فيها بعض كلمات . فمن ذلك بيتان كنت نظمتها سابقا ، زمن أن كنت فى أحاسن الملاح شائقا . وهما :

خذ لِي أماناً من لواحـــظه التى
مـلأتْ فـــؤادِى أسهُماً ونِبالاً
سفكتْ دَمِى وهو الحرامُ إراقةً
فبأىِّ ذنبٍ صَيّرتْهُ حَــلالا

ثم عززْتها بقصيدة بهـا البديهة سمحت ، وعلى بعض لغتهم اشتملت ، وهى مما اقترحوه على ، لإرادة اختبار مالدى ، وهى :

مِنَ الفرنسيسِ غُصْنُ بانٍ قد لاحَ بالحسنِ فى جُنُوسِ(١)
لَهُ مُحَيًّا كَبَدْرِ تَمٍّ مِنْ تَحْتِ ليلٍ من الْبُنُوسِ
أرانِى الدُّرَّ فى ابتســامٍ تَجْرِى به خمرةُ الكؤوسِ
ألحاظه السـودُ قاصلاتٌ بِمُهْجَتِى فِعْلَ خَنْدَرِيسِ(٢)
يا قلبُ صبراً على هواهُ فالحُبُّ فيه رَدَى النُّفوسِ
الوَصْلُ منه غــدَا مُحالاً إذْ لَيْسَ يَرْنِى إلى رَسِيسِ(٣)
أقولُ وَصْلاً يقولُ نُو نُو أقـولُ هجراً يقـولُ ىِى ىِى

فأخذهم من ذلك الطرب ، وتعجبوا منى غاية العجب . وطفقوا فى بث المديح فى ، والإفراط فى الثناء على . وحثونى على الملازمة عندهم ، وأرونى أن هذا طلبهم وقصدهم . فســوفت فى الإجابة ، وأضمرت على عدم الإنابة ، علما منى بأن هذا

---

(١) جمع جنس . (٢) مهجتى : نفسى . الخندريس : الخمر .
(٣) الرسيس : المصاب بالحمى .

الأمر تُفَـوَّقُ عليَّ منه سهامُ الملام ، وتَرْمُقَـنِي بالعداوة والاحتقـار لأجله كافَّةُ الأنام . فرجعت لرشدى أقتفيه ، واستغفرت الله مما كنت فيه . »

* * *

وللخشاب شعر كثير نظمه متغزلا بالغـلام الفرنسى « ريج » ولمـا مات الخشاب سنة ١٨١٥ تولى صديقه العطار جمع ديوانه . وتجـد فى تاريخ الجبرتى ترجمة وافية له .

وفى أيام الاحتلال الفرنسى ، احتفل بالمولد النبوى فى الأزبكية على غير المعتاد. وكان هذا الاحتفال بناء على طلب نابليون . وأقيم الاحتفـال فى بيت السيد خليل البـكرى ونصبت الزينات وأوقدت المصابيح الـكثيرة . وأرسـل نابليون فرقة موسيقاه الخصـوصية إلى بيت البـكرى ، فظلت تطرب الحاضرين ليل نهـار . وفى الليل أطلقوا السواريخ والمدافع .

* * *

وذات يوم طبع الفرنسيون إعلانات وألصقوها على الجدران ، مضمونها أنهم سيُطيرون مركبا ببركة الأزبكية بحيلة فرنساوية .

فلما كان عصر ذلك اليوم ، اجتمع عـدد عظيم من المصريين والأجانب ليروا تلك العجيبة . فإذا قماش ملون أحمر وأبيض وأزرق على شكل كيس كبير بفوهته دائرة من النحاس تشبه دائرة الغربال . وقد علقوا فى وسـط هذه الدائرة مصباحا له فتيل ضخم . وربطوا هذا القماش ببكر وحبال ، أطرافها بأيدي أناس قائمين على أسطح البيوت القريبة منها . ثم أوقدوا تلك الفتيلة فصـعد دخانها إلى داخل الـكيس فامتلأ وانتفخ وصار كالـكرة . وأخذت هذه الـكرة ترتفع شيئاً فشيئا . وكان الناس يساعدونها على أن ترتفع بواسطة الحبال التى فى أيديهم . فلما حلقت

فى الجو ، قطعوا الحبال فطارت فى الجو مع الهواء . وظلت محلقة مدة وجيزة، ثم سقطت وتناثرت منها أوراق كثيرة . فلما حدث ذلك ، ظهر على الفرنسيين كما يذكر الجبرتى الخجل والكسوف ، لأنهم كانوا قد أشاعوا بأنهم سيصنعون مركبا تسير فى الهواء ، ويجلس فيها أنفار من الناس يسافرون فيها إلى البلاد البعيدة لكشف الأخبار وإرسال المراسلات . قال الجبرتى «ظهر أنها مثل الطيارة التى يعملها الفراشون فى المواسم والأفراح » .

* * *

وفى سنة ١٧٩٩ نشبت ثورة فى القاهرة ضد الفرنسيين . وتعرض الجنود الفرنسيون فى أنحاء العاصمة لاعتداء الوطنيين . وحينئذ رأت القيادة الفرنسية ضرورة نقل الإدارات الفرنسية المختلفة والمخازن والجنود إلى وجه البركة . فصدر أمر بإخلاء هذه الجهة من سكانها . وسرعان ما شغلت المساكن بالجنود والضباط والموظفين المدنيين .

ولما غادر نابليون مصر ، خلفه كليبر . وفى حديقة قصر الألفى، كان كليبر ذات يوم يروح ويجيء وبصحبته أحد المهندسين ، فدخل عليه سليمان الحلبي واتجه إليه. فأشار عليه كليبر بالرجوع ، وقال له : « مفيش » وكررها . فلم يرجع وأوهمه أن له حاجة وهو مضطر فى قضائها . فمد إليه كليبر يده ، فقبض عليه سليمان وضربه بخنجر كان قد أعده فى يده اليمنى أربع ضربات متوالية ، فشق بطنه وسقط على الأرض صارخا . فصاح رفيقه المهندس ، فذهب إليه سليمان وطعنه عدة طعنات ، وهرب . فصرخ المهندس بأعلى صوته . فجاء العساكر مسرعين ، ولما عاينوا ما حدث ، انطلقوا يبحثون عن القاتل . وأخيرا وجدوه منزويا فى

بستان مجاور لقصر الألفى . وعثروا على الخنجر ملقى على أرض الحديقة ملوثا بالدماء .

* * *

وفى عهد كليبر ، سنة ١٧٩٩ نشبت ثورة كبرى ، وتحصن المصريون بقيادة إسماعيل كاشف بجوار جامع الكخيا . كما تحصن حسن بك الجداوى بجنوده فى ناحية الرويعى . وهجم العامة على منزل السيد خليل البكرى بشارع عبدالحق السنباطى ، لاتهامه بأنه كان يوالى الفرنسيين ويعدهم بالأطعمة . فهجم عليه عدد كبير من جنود المماليك ومعهم جمع عظيم من عامة الشعب ، ونهبوا داره وسحبوه مع أولاده بعد أن ضربوه ضربا مؤلما وعروه من ثيابه ، وساقوه إلى الجمالية وسلموه إلى عثمان كتخدا .

وزحف المصريون من ناحية جامع الكخيا بقيادة إسماعيل كاشف الذى تحصن ببيت أحمد أغا شويكار . وكان الفرنسيون قد دسوا به لغما ، فاشتعل ذلك اللغم وانفجر ، ورفع ما فوقه من الأبنية والناس وطاروا فى الهواء واحترقوا عن آخرهم وفيهم إسماعيل كاشف . وانهدم جميع ما هنالك من الدور والمبانى العظيمة ، والقصور المطلة على البركة واحترقت جميع البيوت الواقعة فى ناحية الفوالة وكذلك جميع البيوت الواقعة بين جامع الكخيا وقنطرة الدكة .

واحترقت ناحية الرويعى كلها إلى حارة النصارى ، وصارت كلها تلالا وخرائب . قال الجبرتى « .... كأنها لم تكن مغنى صبابات ولا موطن أنس ونزهات ، لقد جنت عليها أيدى الزمان وطوارق الحدثان ، حتى تبدلت محاسنها ، وأقفرت مساكنها . وهكذا عقبى سوء ما عملوا ، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » .

وحولوا جامع الرويعى إلى خمارة . وانهدم جامع الكخيا واتخذوا جامع أزبك « أولاد عنان » سوقا تجارية. وأزالوا جميع الأفاريز من شوارع وجه البركة حتى تتسع الشوارع وتصلح لمرور العربات الكبيرة .

* * *

وقد نظم أحد الزجالين المصريين ملحمة طويلة سجل فيها وقائع الحملة الفرنسية . فمن ذلك قوله :

حازوا بيوت العز سكنوا فيها   وباشهم خيم ببيت الألفى
عسكرهم بالأزبكية صاروا   على البيوت ماعاد لهم بيت يكفى
وزيرهم خيم ببيت البكرى   والكسارى حل ببيت الجلفى
قايم مقام دوبى سكن بيت هانم   والجند فى الأسواق تراهم خطار
حتى الديار تشقى فكن مستبصر   هذى مواعظ جت لأهل الأبصار

ومنها وفيه إشارة إلى ثورة سنة ١٧٩٨ .

نادى منادى فى البلد بالنهضه   قالوا الجهاد مفروض على دى الأمه
راح الخبر فى الحال إلى بيت دوبى   قايم مقام فاغتاظ وقام فى همه
هجم عليه زمزوم ودشوا راسه   فمات وبعده اشتد كرب الزحمه
وجات عساكر مسرعه لا تحصر   وقاتلوا الإسلام وباعوا الأعمار
يومين قتال والحرب زايد قدره   ما خلتهم إلا عفاريت عمار

* * *

وقد شكل الفرنسيون أول قدومهم إلى مصر ديوانا مكونا من بعض الأعيان.

ورجال الدين للنظر فيما يعرض عليه من المشاكل . وكان مقر هذا الديوان بشارع البواكي الآن (بالقرب من ميدان الخازندار) .

* * *

وعقب إخماد هذه الثورة ، شدد الجنرال برتملي على الحركة الوطنية واضطهدها اضطهاداً عظيماً . وقد عرف عند العامة باسم « فرط الرمان » وفى المظاهرات كان الناس يهتفون بقولهم « اللهم انصر دين السلطان واهلك فرط الرمان » .

وكان برتملي ، وأصله رومى ، مقيما فى مصر قبل الحملة الفرنسية . وقد وصفه الجبرتى بقوله إنه من أسافل الروم ، واستخدمه الألفى قائداً لمدفعيته . وفى أوقات فراغه ، كان يشتغل ببيع قوارير الزجاج الفارغة فى حانوت صغير بالموسكى . وقد عينه الفرنسيون وكيلا لمحافظ القاهرة . وإليه يشير الزجال المتقدم فى قوله :

من بعد هـــذا الأمر دار الوالى　　مع الأغا والكلب فرط الرمان
حاشوا خلايق فى حبوس القلعـه　　قد أسجنوهم والقـدر كان
من كان فرغ عمره قتل فى ليـله　　ومن خلص ، من عزته قد هان
وتمموا النـكته بقتل السته　　اللى تقدم ذكرهم فى الأدوار
يا عين عليهم بالمدامع جـودى　　واجملى دموعك عليهم غـزار

* * *

أما السيد خليل البكرى الذى هجم العامة على منزله وكادوا يقتلونه ، فقد كان بحق منحازا إلى جانب الفرنسيين . ولكنه استطاع أن يؤدى خدمات كبرى إلى كثير من العائلات المصرية التى فقدت عائلها فى الحرب . وقد كانت نقابة الأشراف قبل الغزو، فى يد السيد عمر مكرم،الذى هرب من وجه الفرنسيين

إلى الشام . قال الجبرتي في ترجمة السيد خليل : « وصار له قبول عند الفرنساوية وجعلوه من أعاظم رؤساء الديوان الذى كانوا نظموه لإجراء الأحكام بين المسلمين . فكان وافر الحرمة ، مسموع الكلمة ، مقبول الشفاعة عندهم . فازدحم بيته بالدعاوى والشكاوى وآوى كثيراً من المشردين ، وأمن عدداً عظيما من الخائفين . »

وكان للشيخ خليل فتاةفى ريعان شبابها، على جانب عظيم من الجمال . فاختلطت بالفرنسيين وكانت تقضى مع بعضهم أياما وليالى فى لهو غير برىء . ولما اشتهر ذلك عنها ، وساءت سمعتها وأصبحت مضغة فى الأفواه ، عزم والدها على قتلها ولم يتردد فى تنفيذ عزمه .

* * *

ومن علماء المصريين الذين سكنوا فى وجه البركة أيام الاحتلال الفرنسى ، الشيخ محمد المهدى ، شيخ الجامع الأزهر فى عصره .

كان قبطياً واعتنق الإسلام وهو صبي وتسمى باسم « محمد المهدى » .

بدأ حياته الدراسية بحفظ القرآن الكريم . ثم التحق بالأزهر وتلقى على شيوخ عصره علوم النحو واللغة والدين . وسرعان ما تبحر فى هذه العلوم وتصدر للتدريس ، واشتهر بحسن بيانه وفصاحة لسانه وحلاوة عباراته . وأقبلت عليه الدنيا واتصل بالحكام والأمراء والأعيان ، ونال منهم حظا وافراً بحسن معاشرته، وعذب حديثه . وحينما تفشى الطاعون بمصر سنة ١٧٩٠ م مات خلق كثير وتركوا أموالا وعقاراً وضياعاً لاحصر لها ، دون أن يكون لهم من يرثهم. فخصه الوالى بنصيب من العقار والضياع . والتزم بمساحات واسعة من الأراضى الزراعية

وهكذا أصبح من كبار الأغنياء . فابتنى لنفسه قصراً كبيراً فى وجه البركة، بشارع المهدي حالياً .

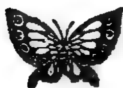
ولما احتل الفرنسيون مصر ، وخاف الناس وغادروا العاصمة ، بقى المترجم واتصل بهم وانضم إليهم وسايرهم ولاطفهم فى أغراضهم وأحبوه وأكرموه ، وقبلوا شفاعته ووثقوا بقوله . فكان هو المشار إليه فى دولتهم مدة إقامتهم بمصر، والواسطة العظمى بينهم وبين الناس فى قضاياهم وحوائجهم . وأوراقه وأوامره نافذة عند ولاة أعمالهم ، حتى لقب عندهم وعند الناس بكاتم السر .

ولما رتبوا الديوان الذى رتبوه لإجراء الأحكام بين المسلمين فى قضاياهم ودعاويهم ، كان هو المشار إليه فيه . والموظفون فى الديوان تحت أمره . وإذا ركب أو مشى يمشون حوله وأمامه وبأيديهم العصى يوسعون له الطريق . وراج أمره فى أيامهم جدا وزاد إيراده وتضخمت ثروته . وضم إلى أملاكه جملة بلاد وقرى • وأقامه الفرنسيون وكيلا عنهم فى أشياء كثيرة ، وبلاد وقرى يجبى إليه خراجها ، ويقوم هو بتسليم الحكومة ما يخصها ، دون أن يراجعه مراجع ، أو يحاسبه محاسب .

ولقد أمن الخائفين والهاربين من وجه الفرنسيين ، وحمى دورهم ونساءهم ، ودافع عنهم فى أثناء غيابهم . وأعان بعض الأسر التى أخنى عليها الدهر . قال الجبرتى : « ... وبالجملة فقد كان بوجوده وتصدره فى تلك الأيام النفع العام . وسد بعقله ثقوبا واسعة وخروقا ، وداوى برأيه جروحا وفتوقا، لاسيما أيام الهيازع والخصومات والتنازع ، وما يكدر طباع الفرنساوية من مخارق الرعية . فيتلافاه بمراهم كلامه ، ويسكن حدتهم بملاطفاته . »

وبعد أن جلا الفرنسيون وعادت مصر إلى حكم العثمانيين ، كانت له الصدارة والتقدم . وظلت كلمته مسموعة ، وشفاعته محترمة ومقبولة . واحتفظ بمكانته حتى فى عصر محمد على . ومات سنة ١٨١٥ .

وفى خلال الثورة ضد الفرنسيين سنة ١٧٩٩ ، تساقطت القنابل على قصره الذى بوجه البركة فتهدم واحترق .



تاريخ الأقباط فى حى الأزبكية

فى وجه البركة نجد الكنيسة المرقسية الكبرى مقر بطريرك الأقباط الأرثوذكس .

وقد كان مقر البطريركية فى العصر الرومانى فى مدينة الإسكندرية، وذلك لأن القديس مرقس نزل بها ونشر فيها الدعوة . ولأن الإسكندرية كانت عاصمة البلاد فى ذلك الوقت . ولهذا السبب يحمل بطريرك الأقباط لقب « بابا الإسكندرية والمدن الخمسة الغربية » .

ويرجع قيام المذهب الأرثوذكسى إلى القرن الخامس الميلادي . ففى هذا القرن نشب خلاف عظيم بين الأساقفة فى العالم المسيحى حول طبيعة المسيح . وعقدت مجامع كثيرة للتوفيق بين الآراء المختلفة . ولكن المصريين بزعامة ديوسقورس تمسكوا بوجهة نظرهم التى تنحصر فى القول بطبيعة واحدة للمسيح، وهى أنه إله . فى حين أن أساقفة روما وعلى رأسهم (لاون) أعلنوا رأيهم الذى ينص على أن للمسيح طبيعتين . طبيعة إنسانية وأخرى إلهية . أى أنهم قالوا بالإثنينية بعد الاتحاد . وفى أحد المجامع المنعقدة لبحث هذا الموضوع ، تمكن المصريون من الانتصار على خصومهم . ولكن (لاون) أسقف روما سعى سعياً متواصلا حتى انعقد مجمع جديد قرر فصل ديسقورس من سلك الكهنوت واعتباره خارجا على الدين.

ومن هذا التاريخ (منتصف القرن الخامس) انفصلت الكنيسة المصرية وأصبحت وحدة قائمة بذاتها .

وقد ظلت كنيسة الإسكندرية مقرا للبطريركية حتى فتح العرب مصر . ففى عهد عمر بن عبد العزيز ، طلب من البطريرك أن يجعل مقره فى القاهرة ، وذلك ليسهل الاتصال بينه وبين الحكومة فيما يتعلق بشئون الطائفة التى يرعاها . فلم يمانع البطرك فى ذلك ، وانتقل إلى مصر القديمة وأقام فى الكنيسة المعلقة . وذلك لأن مصر القديمة كانت العاصمة فى ذلك الوقت .

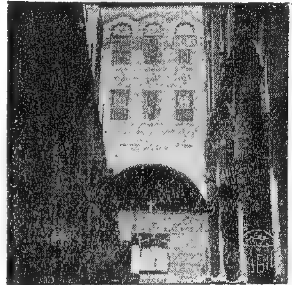
وبعد انتقال العاصمة الى القاهرة المعزية ، وقيام حركة العمران فى تلك الجهة ، تحول البطريرك إلى كنيسة العذراء بحارة الروم . ولكن البطاركة لم يقيموا فيها بصفة دائمة ، بل كانوا أحيانا يذهبون إلى الكنيسة المعلقة . إلا أن غالب إقامتهم كان بحارة الروم . وانتخاب البطاركة كان يجرى فى كنيسة مصر القديمة ، فى حين أن رسامتهم كانت تتم فى كنيسة الملائكة بالإسكندرية .

وحوالى سنة ١٧٩٠ م اشترى المعلم إبراهيم الجوهرى قطعة أرض بوجه البركة ليبنيها كنيسة . وحدث أن جاءت إلى القاهرة إحدى أميرات البيت المالك العثمانى فى طريقها إلى الحجاز . فقابلها المعلم إبراهيم وقدم لها الهدايا النفيسة ، والتمس منها أن تساعده فى الحصول على فرمان لإنشاء كنيسة الأزبكية . وقد حققت أمله ، وجاءه الفرمان بذلك ، ولكن المنية عاجلته قبل أن يشرع فى البناء . وقد ترك إبراهيم ثروة طائلة فقام أخوه جرجس ببناء الكنيسة ، واشترى مساحة من الأرض بجوارها ووقفها عليها .

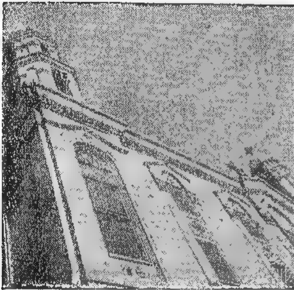
وحوالى سنة ١٧٩٤ حدث حريق بكنيسة حارة الروم فدمرها تدميراً تاما . فانتقل البطريرك مرقس الثامن إلى كنيسة الأزبكية ، وكرسها على اسم مار مرقس .

وتوفى مرقس الثامن سنة ١٨١٠ م . وهو أول من دفن من البابوات بكنيسة الأزبكية .

وفى هذه السنة انتخب بطرس السابع . فكان أول بطريرك يجرى انتخابه فى كنيسة وجه البركة .



المبنى القديم لدار البطريركية الأرثوذكسية



المبنى الحديث

وفى عهد الأنبا كيرلس الرابع (١٨٥٤) شيدت المدرسة القبطية . وهدمت الكنيسة وأعيد بناؤها من جديد .

وقد ذكرنا أن المعلم جرجس الجوهرى اشترى مساحة من الأرض ووقفها على الكنيسة . وهي ما زالت فى حوزتها حتى الآن . وقد شيدت فوقها بيوت ، بعضها حديث ولكن معظمها قديم متهدم آيل للسقوط .

وكثر سكني الأقباط فى تلك الجهة منذ ذلك التاريخ . وفى أيام الاحتلال الفرنسى ، انضم المعلم يعقوب إلى الفرنسيين وأنشأ فرقة عسكرية من شباب

الأقباط ، وقد منحه الفرنسيون رتبة جنرال . وشيد قلعة منيعة فى شارع الجامع الأحمر بوجه البركة ، وجمع فيها الأقباط وتولى حمايتهم والدفاع عنهم ضد هجوم الجيش العثمانى . وظلت القلعة تقاوم حتى عقد الصلح وجلا الفرنسيون عن البلاد وسافر معهم يعقوب وعاش فى فرنسا حتى مات ودفن هناك . قال أحمد زجالى هذا العصر :

وحصنوا الأسوار وأبو يعقوب — بنى قلاع فى حارته غير السور
وكم مساجد فى البنايا أدخل — وكم هدم أملاك وشدد فى الجور
يا حسرتى فينا تحكم يعقوب — وصادر الأعيان وجمع التجار
فرده من القاضى إلى من دونه — حتى الجيدى عمته والحمار
عيد الضحيه ما خطبلوش خطبه — من شدة الهول حدش فيه فكار
وعسكر الأقباط بقى لوصوله — وبهدلوا المأمور مع الأمار

ألخ . . . .

* * *

والآن نترجم للمعلم جرجس الجوهرى عظيم القبط فى عصره ، والمتوفى سنة ١٨١١ .

كان أخوه إبراهيم الجوهرى رئيس كتاب الأمير إبراهيم بك . وقد تمتع إبراهيم بنفوذ عظيم عند سيده ، وبذلك استطاع أن يقدم إلى أبناء طائفته خدمات كثيرة ، وأن يمين فقراءهم ويحميهم من بطش الحكام . وهو الذى فكر فى بناء

كنيسة الأزبكية واشتري الأرض اللازمة لذلك ، وحصل على تصريح ببنائها كما تقدم ذكره .

ولما مات ، خلفه في وظيفته أخوه جرجس . فبنى لنفسه عدة قصور بوجه البركة . وكان تحت يده عدد كبير من الكتبة ومحصلى الضرائب . وبيده حل الأمور وربطها فى جميع البلاد ، نافذ الكلمة ، وافر الحرمة . وجمع ثروة طائلة .

وفى أيام الاحتلال الفرنسى عين فى وظيفة تشبه وظيفة وزير المالية حالياً . فكان المتصرف المطلق فيما يتعلق بالإيرادات والمصروفات .

وظل محتفظاً بنفوذه بعد جلاء الفرنسيين وعودة البلاد للحكم العثمانى . وكان الولاة يحترمونه ويجلونه ويدعونه جرجس أفندى ، ويجلسونه بجانبهم ، ويستشيرونه فى أمور الحكم .

وكان جرجس عظيم النفس ، كريماً جواداً ، يوزع الهدايا على جميع الأعيان والكبراء بمناسبة شهر رمضان كالشمع والسكر ، والأرز والبن والملابس والياميش والعسل وغير ذلك . ولهذا أحبه الناس وارتاحوا إليه وبخاصة وأنه كان يدفع المظالم عن الشعب ، وينصح باستخدام الرأفة والرحمة . واتخذ حرساً خاصاً لحراسة قصره ليل نهار .

ولم يزل جرجس متمتعاً بثقة ولى الأمر ، حتى ظهر المعلم غالى واتصل بمحمد على . وكان غالى يحقد على جرجس ويريد أن يغتصب منه مركزه ، ويستولى على وظيفته .

وقد أدرك غالى مقدار حاجة محمد على إلى المال فى أوائل حكمه . فدبر له مختلف الحيل لابتزاز الأموال من الشعب . ولم يرق هذا فى عين جرجس وأبى ضميره الحي أن يساير محمد على فى خطته الظالمة ، بل إنه استنكر عمل الوالى، وأسدى إليه النصح بأن يترفق بالرعية ولا يرهق الناس بالضرائب . ولـكن الوالى سد أذنيه لأن المعلم غالى استولى على مشاعره ، وسهل له كل أمر عسير . وقد حدث أن محمد على صادر أوقاف المساجد . فذهب المشايخ محتجين على ذلك ، فتصدى لهم المعلم غالى قائلا :

يا أسيادنا هذا أمر مفروغ منه بأمر أفندينا ، وواجب عليكم مساعدته خصوصاً فى خلاص كعبتكم ونبيكم . وكان محمد على فى ذلك الوقت مشغولا بقتال الوهابيين .

وخلاصة القول إن المعلم غالى استطاع أن يقضى على جرجس الجوهرى قضاء تاماً . فاضطر هذا إلى أن يهرب إلى الصعيد . وقيل إن محمد على نفاه إلى الصعيد. وقبل سفره جمع الحجج الخاصــة بأملاكه بوجه البركة وسلمها إلى البطرخانة لتنفق من ريعها على أهل بيتـــه ، فوضعت يدها عليها ، وبقيت فى حوزتها حتى الآن .

ومات جرجس سنة ١٨١١ ودفن بمصر العتيقة ، ولا يزال قبره هناك .

* * *

والحديث عن الأقباط فى هذا الحى يستغرق حيزاً كبيراً، لأنه يشمل تاريخ الـكنيسة المرقسية وبطاركتها، وماقام فيها من نهضة وإصلاح، ونزاع وتنافس. ولما كان هذا

الـكتاب لا يتسع لذلك ، فقد رأينا أن نـكتفى بالحديث عن أبى الإصلاح كما لقبه أبناء طائفته — وأعنى به الأنبا كيرلس الرابع .

ولد الأنبا كيرلس الرابع (واسمه داود) سنة ١٨٠٦ فى الصوامعه ، إحدى قرى مديرية جرجا . وتلقى فى قريته مبادىء القراءة والـكتابة . ثم اشتغل مع والده بالزراعة ، واختلط بعربْ جرجا وتعلم منهم ركوب الخيل ، وصار يقطع مسافات طويلة فى الصحراء ، فعرف طرقها ومسالـكها .

ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره ، شد رحاله إلى دير القديس أنطونيوس بناحية جرجا للترهب والانقطاع للعبادة . فوصل إليه بعد مسيرة ثلاثة أيام . وترهب على يد أثناسيوس القلوصنى رئيس ذلك الدير . ولم يلبث هناك مدة حتى اشتهر بين رفقائه الرهبان بالذكاء والاستقامة ، ودماثة الأخـــلاق والهمة والنشاط .

ولما اختير رئيساً لدير القديس أنطونيوس ، أصدر منشوراً أوصى فيه الرهبان بعدم مبارحة الدير إلا بعد الحصول على إذن منه . وذلك لأنهم كانوا يغادرون الدير بصفة مستمرة ، ويتغيبون عنه مدداً طويلة . ومما أثر عنه قوله : « إن من يختار ثوب الرهبنة فقد مات عن الدنيا ودفن فى الدير فلا يخرج الميت من قبره . والرئيس الذى يأذن للراهب بالخروج من ديره ، قد أخرج ميتاً من قبره » .

ثم اختير رئيساً لدير بوش (فى مديرية بنى سويف) فظهر شغفه بالثقافة العامة ، واهتمامه برفع مستوى أبناء طائفته من الناحية العلمية . فأنشأ مكتبة بهذا الدير ، وزودها بعددعظيم من الـكتب الدينية والتاريخية . وكان يجمع الرهبان إليه فى ساعات الفراغ ، ويستحثهم على المطالعة والدرس والبحث فى الموضوعات الدينية والتاريخية .

وأنشأ مدرسة لتعليم أبناء بوش الأقباط اللغة العربية بفروعها ، واللغة القبطية. واعتنى هو بدراسة النحو والصرف . وكان شخصية محبوبة فى مديرية بنى سويف كلها .

ولما مات الأنبا بطرس السابع سنة ١٨٥٢ رشح بعض رجال الإكليروس الأنبا كيرلس (الراهب داود) لكرسى البطريركية . ولكن بعضهم الآخر عارض فى ذلك معارضة شديدة . وظل منصب البطريرك شاغراً لمدة سنة . على أن رجال الإكليروس لم يمانعوا فى اختياره مطرانا لمدينة القاهرة ، وكان ذلك سنة ١٨٥٣ .

ومن ذلك التاريخ ، أخذ فى مباشرة أعماله ، وإدارة البطركخانة ، وأظهر من الأهلية والهمة والغيرة ما أطلق الألسنة بالثناء عليه .

وأول أعماله التى قام بها بعد رسمه مطرانا ، بناء مدرسة للأقباط بجوار البطركخانة سنة ١٨٥٣ وهى أول مدرسة أقيمت لهذه الطائفة بمدينة القاهرة .

وكان بناء المدرسة ونجاحها عاملا قويا فى إجماع الأقباط على محبته واحترامه . فلا عجب أن انتخبوه بطريركا سنة ١٨٥٤ بحضور الأساقفة ، ماعدا أسقفى أخميم وأبو تيج ، فإنهما خرجا على هذ الإجماع وانفردا بمعارضتهما فى اختيار المترجم لمنصب البطريرك .

فلما تم انتخابه ، شرع فى تنفيذ برنامجه الإصلاحى . فعين بالمدرسة بعض مهرة المدرسين من أجانب ومصريين . وكان التعلم فيها بالمجان ، ويصرف للتلاميذ الكتب والكراسات والأدوات المدرسية دون مقابل .

ولشدة عنايته بها ، اتخذ له مكتبا فيها . فإذا أتى إليه زائر أجنبى أو وطنى

وله معرفة باللغات والعلوم وطرق التدريس ، كلفه بالمرور على الفصول والنظر فى أحوال المدرسين والتلاميذ ، وتدوين ملاحظاته حتى يمكن أن ينتفع بها فى النهوض بالمدرسة ، وتحسين طرق التدريس بها . وكثيراً ما كان يطيل الإقامة فى أحد الفصول ، مصغياً لما يلقيه الأستاذ على الطلبة ، ثم يقول مخاطباً التلاميذ قبل خروجه : « قد استفدت معكم اليوم فائدة لم أكن أعرفها قبلا » وكان أحيانا يلقي على التلاميذ محاضرات أدبية وتاريخية مما يناسب سنهم وإدراكهم . وقد جعل تعليم اللغة القبطية إجباريا ، وكان يشرف على تعليمها بنفسه .

ثم أنشأ مدرسة أخرى وكنيسة بحارة السقائين .

وعهد إلى أحد قسس كنيسة الأزبكية وهو القمص تكلا بأن ينتخب من بين تلاميذ المدرسة الشمامسة عدداً معلوما من ذوى الأصوات الحسنة ، وناط به تعليمهم التراتيل الكنائسية بطريقة مضبوطة ، وجعل لهم ملابس مخصوصة على طراز جديد لطيف، يلبسونها فى أثناء وجودهم فى الكنيسة فى أيام الآحاد والأعياد والمواسم . فنتج من هذا التحسين الظاهرى فائدتان : إحداهما إظهار مزايا المدارس وترغيب الأهالى فى إرسال أبنائهم إليها . والثانية مواظبتهم على الحضور إلى الكنيسة وهم منشرحو الصدر من سماع التراتيل .

وقد كان اختيار القمص تكلا لهذه المهمة موفقا . وذلك لأن هذا القمص كان يتقن فن الموسيقى والألحان الكنائسية إتقانا مدهشاً . وامتاز بصوت فى منتهى الجمال والإبداع .

وكانت اللغات التى تدرس بالمدرسة غير اللغة العربية هى: اللغة القبطية القديمة،

والتركية ، والطليانية ، والإنجليزية ، والفرنسية . وتلاميذها من جميع الطوائف . وكلهم معفون من دفع نفقات التعلم وثمن الكتب والأدوات .

وفى عهد الخديو إسماعيل أنشئت مصلحة السكك الحديدية . وأسندت إدارتها إلى أحد الأقباط . فذهب إلى المدرسة ذات يوم ، وأخذ معظم تلاميذها وعينهم فى المصلحة . ثم أنشئت مصلحة البريد فتعين بها عدد كبير منهم . كما تعين من خريجيها عدد وافر فى ديوان المالية .

وعرف الخديو إسماعيل فضل المدرسة القبطية فى نشر العلم . وكان الأنبا كيرلس قد مات وخلفه الأنبا ديمتريوس ، فدعاه الخديوى لمقابلته ، ورحب به ، ووهب المدرسة ألفا وخمسمائة فدان من أجود الأطيان ، لتكون وقفاً ينفق من ريعها على التلاميذ ، وسلم للبطريرك حجة بذلك . كما قرر لها إعانة سنوية قدرها مائتا جنيه . ولكن هذه الإعانة قطعت حينما اضطربت الأحوال المالية فى أواخر عهد إسماعيل .

* * *

وقد وجه الأنبا كيرلس الرابع همه إلى تحسين إدارة البطركخانة . فأنشأ ديواناً وعين له المستخدمين الأكفاء ، وقسم الإدارة إلى قسمين : قسم يختص بالأوقاف والمكاتبات الرسمية وغيرها . وقسم يختص بالأعمال الدينية .

ورأى أن أعمال الأوقاف جارية بطريقة غير منتظمة . وكان بعضها ضائعاً ولم يعرف الضائع منها والموجود . فأمر بإنشاء سجل لحصر جميع الأوقاف به ، من واقع الحجج ، وعين لهذا العمل عدداً من الموظفين ، اشتغلوا به زمناً حتى أتموه على الوجه الأكمل .

وأنشأ مطبعة . ولما حضرت أدواتها من أوربا أمر باستقبالها فى احتفال رسمى يسير فيه الشمامسة بالملابس الرسمية المختصة بالخدمة الكنائسية ، يرتلون التراتيل الروحية . وكان هذا الاحتفال حديثاً للناس مدة من الزمن لغرابته .

وفى عام ١٨٥٦ بعثه سعيد باشا إلى الحبشة فى مهمة سياسية ولما رجع سنة ١٨٥٨ تهافت أبناء طائفته على استقباله وتحيته ، وازدحمت شوارع الأزبكية التى مر بها موكبه ، وأعدوا له زينة فاخرة فى المدرسة والبطركخانة .

وهدم بناء الكنيسة والبطركخانة الذى أقامه المعلم جرجس ، وأعاد بناءها واحتفل بذلك احتفالا عظيما حضره جميع رؤساء الطوائف وأعيان البلاد ورجال الحكومة ، وكان ذلك فى أبريل سنة ١٨٥٩ .

وحينما مات سنة ١٨٦١ حزن عليه كل من عرفه أو سمع عنه شيئاً . ومن أعماله الطيبة أن القسس كانوا قبل عهده يعيشون على حسنات الطائفة وصدقاتها . فرتب لهم الأنبا كيرلس مرتبات شهرية تصرف لهم من البطركخانة . ورغبة فى رفع منزلتهم ، والنهوض بمستواهم ، أصدر منشوراً يقضى بأن المرتب لا يصرف إلا لمن يحسن الصلاة باللغة القبطية .

وعند عودته من الحبشة ، حدد للقسس موعداً يجتمعون فيه كل يوم سبت ليبحثوا فى أمور الدين . وكان يحضر معهم ويناقشهم ويشرح لهم واجباتهم . وكان فى نيته أن يعقب ذلك بإنشاء مدرسة إكليركية ، ولكنه مات قبل أن يحقق أمنيته .

وفى آخر أيامه فتح مدرسة للبنات ، ولكنها لم تصادف نجاحا وأغلقت .

* * *

ويلاحظ المطالع فى تاريخ الأقباط ظاهرة تدعو إلى الأسف الشديد . هذه الظاهر هى الخصومات العنيفة التى تنشب بينهم حول اختيار شخص البطريرك . فقد حدث فى مرات كثيرة أن ظل الكرسى البطريركى شاغراً عدة سنوات . وحدث أن قام بطريركان فى وقت واحد. أحدهما فى الإسكندرية، والآخر فى وادى النطرون . وكانا يذكر المنازعات والمعارك الحامية التى وقعت خلال عهد الأنبا يوساب . وكان يظن أن هذه المعارك ستنقطع بعد وفاة هذا البطريرك ، إلا أن الواقع أثبت غير ذلك . فانقسم الأقباط إلى فريقين تفصل بينهما هوة عميقة . وتعذر عليهم أن ينتخبوا خليفة لمرقس الرسول .

ومع أن المفروض أن الرهبان قد تخلوا عن الدنيا، وزهدوا فيها، وخرجوا منها، وانقطعوا لعبادة الله ، إلا أنك لا تجد من واقع حياتهم ما يدل على ذلك . فتراهم يطبعون المنشورات ، التى يطعن فيها بعضهم فى بعض طعنا قبيحاً ، ويوجه بعضهم إلى بعض على صفحات الجرائد التهم الفاضحة كالسرقة والاختلاس والتزوير والتدليس ، والكذب والغش والخداع .

ولم يحترموا الأنبا يوساب فى شيخوخته ، بل راحوا يشهرون به تشهيراً لا يقره دين ولا يرضاه ضمير . وجرحوه فى ذمته وأخلاقه ، وحاولوا قتله .

* * *

وقامت بجوار البطرخانة بعض الصناعات التى تمت إلى الدين المسيحى بصلة ، كصناعة العمائم السود التى يلبسها رجال الدين ، ونسج وحياكة الملابس الكهنوتية . وصناعة الصلبان من الخشب المطعم بالصدف، أو من العاج والأبنوس، أو من بعض المعادن كالفضة والذهب . وصناعة الشمع الذى يوقد فى الكنائس ،

والأسرجة ، والعصى ، والمسابح ، والمراوح ، والطراحات ، وغير ذلك مما لا يزل بعضه قائماً إلى اليوم .

واشتغل بعض الأجانب بعمل التماثيل والصور للشهداء والقديسين ، وصناعة القناديل والشمعدانات .

* * *

وكانت الآداب المسيحية فى مبدإ الأمر ، قاصرة على نظم الأناشيد والترانيم الدينية ، وتأليف العظات الروحية فى أسلوب عامى حتى يسهل فهمه على سواد أبناء الطائفة .

ولما أنشئت مدرسة الأقباط ، أقبل بعض تلاميذها على الاشتغال بالخطابة والكتابة ونظم الشعر . وكانت إدارة المدرسة تشجعهم على ذلك .

ومن أشهر أدباء الأقباط وجه البركة ، تادرس وهبى الذى أسندت إليه نظارة المدرسة ، وله شعر كثير فى مدح الحكام .

ومن مفاخر مصر التى نوه بها فى شعره ، تقدم حركة التعليم فى المدارس ، وفى الأزهر . قال :

حَتَّى تَلأْلأَتِ المدارِسُ بَهْجَـــةً
بِوُجـودِهِ وغَدَتْ لَهُ تَتَشَـكَّرُ
ولَـكَمْ بِأزْهَـرِهـا شُموسُ لِطائفٍ
أنوارُهـا لِأُلِى المعـارِف تَبْهَـرُ

وجميل جداً من قبطى كتادرس وهبى أن ينوه بشأن الأزهر وعلمائه .

* * *

ومن قوله فى رثاء بطرس غالى ، وقد اغتيل سنة ١٩١٠ :

مَا رَأَيْنَا كَمِثْلِهِ مِنْ وَزِيرٍ بَلَغَ القُطْرَ سَعْيُهُ المَأْمُولاَ
أَنْشَأَتْهُ كِنَانَةُ اللهِ سَهْماً
ذَا يَدٍ فى سِيَاسَةِ المُلْكِ طُولَى
نَازَعَتْنَا فِيهِ اللَّيَالِى وَوَدَّتْ
لَوْ بِهِ جَادَتِ القُرُونُ الأُولَى
اصْطَفَاهُ العَبَّاسُ لِلمُلْكِ ذُخْراً
فَامْتَطَى غَارِبَ المَعَالِى ذَلُولاَ
وارْتَضَاهُ إِذْ لَمْ يَجِدْ مَنْ سِوَاهُ
فى صِعَابِ الأُمُورِ قَطُّ بَدِيلاَ

هكذا وقف نادرس وهى يُعَدِّد مآثر الفقيد ، وينوه بمناقبه وفضائله . وقد أسهب فى ذلك لينفى عن بطرس تهمة الخيانة التى وجهها القاتل إليه ، وجعلها سبباً لتبرير جريمته . واستخدم الشاعر ألفاظا وعبارات ذات إيحاء خاص ، مثل قوله : « واصطفاه العباس » وقوله « وارتضاه إذ لم يجد من سواه قط بديلا » فكيف يكون خائنا من اصطفاه العباس وارتضاه ؟ ونسى أو تناسى أن العباس لم يكن حراً فى اختيار الوزراء ، وإنما كان منفذا لرغبات المحتلين الذين اقترحوا عليه تعيين بطرس غالى فى منصبه .

وقال مخاطباً الوردانى :

يَا شَقِيَّ الشَّقَاءِ دُنْيَا وأُخْرَى
كَيْفَ حَلَّلْتَ قَتْلَهُ تَحْلِيلا
لَسْتَ مِنْهُ وَلا قُلامَةَ ظُفْرٍ
فَلَكَ اللهُ خَائِناً مَرْذُولا

عَلِمَ اللهُ أنَّ بُطرُسَ غالِي
كانَ فِيما يَلِي قَوُلاً فَصُولاَ
لَمْ يُحاوِلْ أمراً يَضُرُّ فَرِيقاً
أوْ يسومُ البلادَ وَقْراً ثَقِيلا

ومنها :

وَلْنُرَدِّدْ تَأبِينَهُ وَكأنّا
مِنهُ نَتلُو التَّورَاةَ والإِنجِيلا
وَلْنُرَتِّلْ فِي كل آنٍ وآنٍ
مَا حَيِينا أعمالَهُ تَرْتِيلاَ
وَلْنَزُرْ دائِماً مَقاماً حَوَاهُ
وَلْنُقَبِّلْ رُفاتَه تَقبِيلاَ
وَلْيَصُغْ كلُّ عارِفٍ بِعُلاَهُ
مِنْ بَنِي مِصْرَ فَوْقَهُ إكلِيلاَ
وَلْنُعَوِّلْ عَلَىَ الأَمِيرِ المُفَدَّى
فى دَمٍ باتَ مُهْدَراً مَطْلُولاَ
فإذَا اقتص فالقِصَاصُ حَيَاةٌ
وَهُوَ نَصٌّ لا يَقْبَلُ التَّأوِيلاَ

وختمها بقوله :

ثُمَّ أَنْشِدْ بَيْنَ القُبورِ وأَرِّخْ
مَاتَ وَامِصْرَ بُطْرُسٌ مَقْتُولاَ

٣٤١ ٣٣٧ ٢٧١ ٥٧٧

= ١٦٢٦ قبطية

وفى هذه الأبيات نرى الشاعر يوجه اللوم والسخط الشديد للقاتل الذى وصفه بأنه حليف الشقاء فى الدنيا والآخرة . وذلك لأنه قد خسر الدنيا بما سيلقى من الجزاء وهو الإعدام . وخسر الآخرة لأنه ذاهب إلى جهنم . ثم خاطب القاتل فذكر أن بطرس غالى برىء مما اتهم به من الخيانة ، وأنه لم يسبب ضرراً لبلاده أو لأمته . ثم أخذ الشاعر يرتفع بشخص الفقيد إلى مراتب القديسين . فدعا الأقباط إلى أن يحجوا إلى قبره ، ويقبلوا ضريحه ، ويحملوا إليه الأزهار والورود تكريماً للفقيد وتحية له . ثم دعاهم إلى التغنى بمآثر بطرس ، وترديد مناقبه وفضائله ، كما يرددون التوراة والإنجيل ، أى أنه طلب منهم إن يتعبدوا بسيرته ، وهذا تقديس ليس بعده تقديس .

وقد اتجه إلى الخديو ، وأعرب عن رجاء الطائفة القبطية فى أن يوقع القصاص على المجرم ، وأن تأخذ العدالة مجراها . وأشار إلى آية « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب » وقال إن هذا النص واضح المعنى ، لا يمكن أن يفسر على غير ظاهره . والذى دفع الشاعر إلى طلب إعدام القاتل ، هو الشائعات التى روجها بعض الناس عن محاولات تبذل عند الخديو ليعفو عن القاتل . وربما قام بعض المصريين بكتابة عرائض وإرسالها إلى الخديو ، طالبين فيها الصفح عن المجرم . وقد استخدم العام القبطى فى تأريخ ذلك الحادث .

* * *

وقد أنشأ الأمريكان قاعة للوعظ والتبشير بوجه البركة، مازالت قائمة إلى الآن تلقى فيها العظات ، وتقام بها الصلوات . وكانوا فى أيام الاحتلال ينشرون كتباً تتضمن مطاعن فى الدين الإسلامى . ولكنهم كفوا عن ذلك فى هذه الأيام . وحذت حذوهم بعض الإرساليات الأجنبية الأخرى . فكان بوجه البركة عدة قاعات للتبشير بالدين المسيحى وتدريس التوراة والإنجيل . وكان المبشرون يتسللون إلى دور البغايا ويحاولون إقناعهن بترك حياة الفساد ، والرجوع إلى الله .



وجه البركة فى العصر الحديث

بعد جلاء الحملة الفرنسية ورجوع مصر إلى الحكم العثمانى ، رأينا الولاة يسكنون فى الأزبكية تشبها بنابليون . فقد نزل الوالى محمد خسرو باشا فى قصر الألفى .

وبالقرب من البركة دارت معارك عنيفة بين خسرو ، وبين الجنود الأرنؤود الذين كان يتزعمهم طاهر باشا .

وقسم خسرو عساكره وجعلهم فى هيئة مربعات على طريقة نابليون وحارب بهم أعداءه وانتصر عليهم . إلا أن الأرنؤود توجهوا إلى القلعة واستولوا عليها وكان بها مدافع وذخيرة كثيرة . وجاءوا ليلا على حين غفلة وحاصروا قصر خسرو ، وأطلقوا عليه النيران مدة طويلة حتى احترق القصر وتهدم ، واضطر خسرو إلى مغادرة القاهرة والسير بحريمه وأهل بيته وأمواله إلى الإسكندرية . ونهب الأرنؤود منازل الموالين لخسرو من سكان الأزبكية مثل بيت جرجس الجوهرى ، وأحمد المحروق ، وخليل البكرى وغيرهم . وأصبح قصر الألفى خرابة تنعق فوقها الغربان .

* * *

وأقام محمد على أول عهده بالولاية فى قصر فخم بالأزبكية . واستولى على بعض القصور المتهدمة فى تلك البقعة وأعاد بناءها وسكن فيها أقاربه وأهله وحريمه .

كما أنشأ بعض الإدارات والمصالح فى تلك الجهة . منها إدارة النظر فى شكاوى الفلاحين ، وكانت بالقرب من شارع عبدالحق السنباطى الآن . ومديرها إبراهيم كتخدا الرزاز يساعده عدد من الموظفين المسلمين ولم يعين بها أحد من الأقباط . وكانت هذه الإدارة تعمل كل يوم ما عدا يوم الجمعة .

وفى سنة ١٨٠٧ عقب انتصـــار المصريين على الإنجليز فى رشيد، حمل المنتصرون عدداً كبيراً من رؤوس أعدائهم ، وعلقوها فى أعمدة بالقرب من بركة الأزبكية ، وظلت أياما وهي معلقة والناس يقبلون لمشاهدتها .



وفى سنة ١٨١٤ زوج محمد على ابنه إسماعيل وكاتبه محمد بك الدفتردار . وأقيمت فى الأزبكية احتفالات عظيمة ، وأعدت فيها مواكب أرباب الحرف والصناعات . وأخذت الطوائف المختلفة تتنافس فى الظهور بالمظهر اللائق بها . وتتفنن وتبتدع . قال الجبرتى : « . . . فكان كل من سولت له نفسه ، وحدثه شيطانه بإحداث شيء فعله . ويجمع من أهل الحرفة مالاً كثيراً ينفقه على العربة وما يلزمها من أخشاب وحبال ، وحمير أو خيل أو رجال يسحبونها ، وما يكتريه أو يستعيره لزينتها من المزركشات والمقصبات وأدوات الصنعة التى يتميز بها عن غيرها . فتصير — أى العربة — فى الشكل كأنها حانوت، والبائع جالس فيها كالحلوانى وأمامه الأوانى فيها أنواع الحلوى ، والسكرى وحوله أوانى الملبس وأقماع السكر معلقة . والشربتلى ، والعطار ، والحريرى ، والعقاد البلدى والرومى ، والزيات ، والحداد ، والنجار ، والخياط ، والقزاز ، والحباك والنشار وهو ينشر الخشب بمنشاره المعلق ، والطحان ، والفران ومعه الفرن وهو يخبز . والفطاطرى، والجزار وحوله لحم الغنم . ومثله جزار الجاموس ، والكبابجى والنيفاوى ، وقلاء

الجن والسمك وفيهم حتى المراكبي فى سفينة كبيرة كاملة العدة والقلوع تمشى على الأرض على عجل . وحـــول كل عربة أهل حرفتها بالملابس الجميلة الفاخرة والطبول والزمور . »

وكان هذا الموكب مستقراً فى وجه البركة ، ويطوف كل يوم شوارع القاهرة ثم يعود إلى موضعه . واستمر على ذلك طوال أسبوعين .

وأقيمت الزينات ورفعت المصابيح على الأعمدة . وعملوا بواسطة المصابيح عدة مناظر . قال الجبرتى : «فترى من البعد صورة مركب أوسبعين متقابلين أوشجرة أو محمل على جمل أو كتابة مثل ماشاء الله ونحو ذلك . »

وازدحم وجه البركة بالناس على اختلاف أجناسهم وطوائفهم ومللهم ، نساء ورجالا ، شيباً وشباناً . وأقبل الفلاحون من القرى المجاورة . وتعذرت حركة المرور فى شوارع الأزبكية لشدة الازدحام . وورد جميع أصحاب الألعاب المختلفة كالحواة وأصحاب الأراجوز وخيال الظل ، والعاب البخت والحظ والميسر والأراجيح وغير ذلك . وظلت المدافع والصواريخ تطلق لمدة أسبوعين . وكثرت مآدب الطعام التى تحوى ما لذ وطاب .

وانتشرت المغانى وأقبلت الراقصات من كل صوب ، وراجت تجارة المخدرات ، ونشطت سوق الدعارة ، وربح القوادون مبالغ طائلة لأنهم واصلوا أعمالهم ليل نهار بعزيمة لم تعرف الكلال ، وهمة لم يتطرق إليها الملل . وكان محمد على قد بدأ فى تكوين جيش ضخم اســـتعداداً لحرب الوهابيين . فانطلق الجنود بوجه البركة يلهون ويعربدون .

* * *

وفى سنة ١٨٣٥م أمر محمد على بردم البركة ، بعد أن أشار عليه الأطباء بذلك. ثم غرس مكانها حديقة واسعة .

وكان من المعتاد أن يجرى الاحتفال بالمولد النبوى بالقرب من منزل نقيب السادة البكرية بوجه البركة . وقد وصف الرحالة الإنجليزى « إدوارد وليام لين » ما شاهده فى هذا الاحتفال ، وذلك سنة ١٨٣٤ م ، فيما قاله :

« . . . وحين يبدأ شهر ربيع الأول ، تأخذ البلاد فى الاستعداد للاحتفال بمولد النبى . ويقام الاحتفال عادة فى الجزء الجنوبى الغربى من الفضاء الواسع المعروف ببركة الأزبكية . وينصب الدراويش صواوينهم التى يقيمون فيها الأذكار كل ليلة .

« فى أثناء النهار يتجمع الناس فى مكان الاحتفال ، يستمتعون بالاستماع للشعراء الذين يروون سيرة أبى زيد الهلالى ، ويتفرجون على الحواة والبهلوانات والمهرجين . وتشاهد فى الشوارع المجاورة الأراجيح بأنواعها المختلفة ، وعدد لا حصر له من الدكك التى تباع عليها الحلوى والأطعمة المتنوعة . وكان الراقصون على الحبال من الغجر يعرضون ألعابهم فى المولد . وفى الليل تتلألأ أضواء المصابيح فى هذه الشوارع ، وتفتح الدكاكين ، التى تزخر بالأطعمة والحلوى ، أبوابها طوال الليل . وكذلك المقاهى التى يتسلى الناس فيها بالاستماع للشعراء والمحدثين. وبعد منتصف الليل تمر مواكب الدراويش . »

* * *

وفى عصر الخديو إسماعيل ، حدثت تغييرات هامة فى خريطة وجه البركة : فقد أزيلت الحدائق الواسعة وحولت إلى شوارع وميادين . وأقيمت فى أمكنة

منهـا المبانى الفخمة ، وشيدت دار الأوبرا على جزء منها . وظلت الحـديقة التى غرست مـكان البركة كما هى ، حيث اتخذها إسماعيل حديقة خاصة له ، يقضى بها بعض الأوقات . وقد أحاطها بسور مرتفع من الحديد ، له أربعة أبواب . وأنشـأ بها تلا عليه كشك لطيف ، تحيط به الجـداول والنافورات البديعة ، وغرس فى الحديقة أشجاراً مختلفة الأنواع .

ومن الميادين التى مهدت فى عهده : ميدان الأوبرا ، وميدان قنطرة الدكة ، وميدان الخـازندار .

وشق شارعا طويلا يمتد من ميدان باب الحديد ، وينتهى بميدان الخازندار ، هو شارع كلوت بك .

وفى عصر توفيق ، أبيح دخولهـا للجمهور بعد دفع مبلغ معين . وقد ظل هذا النظام قائماً حتى أزيلت أسوار الحديقة سنة ١٩٥٤ ، وفتح فى وسطها شارع على امتداد شارع ٢٦ يوليو « فؤاد الأول » .

* * *

ومنذ عصر سعيد والأجانب يتوافدون على مصر لاستيطانها . وقد شجعهم سعيد على ذلك . ووجدوا فى الامتيازات الأجنبيـة ما يحميهم من قوانين البلاد ويمـكنهم من انتهاك الحرمات ، واستغلال كافة الفرص للاثراء .

وانتشر كثير منهم بوجه البركة يفتحون الخمارات والفنادق والمقاهى والمطاعم وأمـكنة الميسر وبيوت الدعارة ، والمخابز ومحلات البقالة . واشـتغلوا بالسمسرة فى سوق الأوراق المالية ، وبالمحاماة فى المحـكمة المختلطة ، وكانت فى ميدان العتبة

فى موضع المنتزه القائم اليوم فى وسط الميدان . ولم تستطع الحكومة أن تحد من نشاطهم غير المشروع . ولذلك كثرت جرائمهم وبخاصة فى عهد الاحتلال ، وأصاب المصريين من ذلك ضرر عظيم . وكثرت بيوت الدعارة المصرية والأجنبية وزحفت شمالا فاحتلت شارع كلوت بك الذى فتح فى عصر إسماعيل ، ودخلت فى كل زقاق من أزقته ، وفى كل منعطف من منعطفاته ، وامتدت شرقا إلى شارع الرويعى والشوارع المتفرعة منه حتى شغلت مسافة وصلت إلى باب الشعرية .

* * *

وكان الأدباء يغشون المقاهى والحانات والمراقص المنتشرة بوجه البركة ، وكثيرا ما يجعلون مما يشاهدون من أنواع الفساد موضوعا لكتاباتهم . وقد أطلق بعضهم على ميدان الأوبرا اسم « جهة الحصان » لأن تمثال إبراهيم باشا يقوم فى هذا الميدان ممتطياً جواداً . فهم لكراهيتهم فى عائلة محمد على ، لم يطلقوا اسم إبراهيم على الميدان ، ولكنهم أطلقوا اسم الحصان . وقد انتقد المويلحى وضع التمثال فى هذا المكان . فقال فى كتابه « حديث عيسى بن هشام » : « وقد تمثل أمامى فى هذه البقعة ، وهى موسومة بسوء السمعة ، بطل مصر . وكيف جاز لهم أن يضعوا عنوان البأس والجد فى مواضع الهزل والدد . ويقيموا لإبراهيم صنما على صورته فى وسط سوق الفسوق وسرته ، مشيراً بيمناه إلى مواطن اللهو والفجور ، وأماكن الفحش والعهور .

« ويا بؤس قوم جعلوا اليد التى كانت تشير للكماة والفرسان ، تشير اليوم فى وسط هذا الميدان بمنازلة البغايا ومعاقرة الدنان . فسبحان محول الأحوال ومبدل الأزمان . »

ويعتبر المويلحى من كتاب وجه البركة المدودين . فقد سخر قلمه فى تصوير ما كان يجرى على بعض العمد وأولاد الأغنياء فى تلك الجهة من فقـــدان الأموال والضياع .

وكان حسن الآلاتى يتجول كثيرا فى شوارع وجه البركة . وقد حدثنـا عن بعض مشاهداته فقال .

« لما رأيت الخلق وخصوصاً فى جهة الحصان منعكفين على استعمال الصقار فى أدبارهم ، وشاع وذاع هذا الفسق . وكثر ذلك فى البلد حتى إذا مر الرجل الصـالح من جهة الحصـان أو نواحيه ، يجتمع عليه المخنث والإثنان والعشرة ، ويقولون له « ولع ســـيجارتنا » مثلا أو « أعطنا كبريتا » . فإن أبى ذلك أو أعطاهم ما طلبوه فلا يسلم من أذاهم ، بل ربما يدعون عليه أنه فعل ببعضهم وتأتى شهودمنهم فيهم ويشهدون على الرجل الصالح التقى الدين أنه فعل بالمخنث كذا وكذا مرة .

ولهم قوادون ينزلون على المارين فى طريقهم، أى فى الشارع من جهـــة الحصان ، ويتعرضون للمارة . فإن كان الرجل — أعني من المارة — من الذين يستحون ويخافون على أعراضهم ، يمد يده فى جيبه ويخرج الـكيس ليعطى الخبيث منهم قرشاً أو قرشين أو أكثر ، يريد أن يدفعهم عن نفسه بذلك القدر ، فيمد الخبيث يده هو والذين معه ويخطف الـكيس . وإن مانع الرجل عن نفسه، ضربوه ونهبوه . وربما حصل ضرب ببعض الأسـلحة . والعجب أنهم يأخذون الناس من الطريق ويدعون عليهم عند الحكام أنهم فعلوا بهم ولم يعطوهم الأجرة . وتسمع

الخائن منهم يقول : أعطني طرقتي لأنك أفسدت على سفرتي . إلى غير ذلك مما يطول شرحه . »

ثم نظم حسن الآلاتي زجلا ضمنه معنى ما تقدم . فقال .

جددوا عند الحصان جملة قهاوى
تجتمع فيها الدواهي والمساوى
لو تروح للقهوجي تعطيه رشاوى
تلتقيه قواد كبير مالو مدانى
وان دخل قولى المفيد عقلك وامر
ادخل الشارع تجد الاسود ولسمر
والولد عامل خطوط وابيض واحمر
والأصول لحمى غطيس أو برتقالى

ومنها :

جاعلين الفسق والسرقة تجارة   أول الأشكال يقولوا: هات سجاره
لو رضيت أخذوك لقهوه أو لحاره   وان أبيت مروك ولو كنت المنانى
يطلوا الناس السذارى والنوانى   بالذكور المرد أولاد الزوانى

* * *

وقد كثر هذا النوع من التجارة كثرة فاحشة . وكان من هؤلاء المخنثين من

يلبس ملابس النساء ويستأجر مسكنا خاصاً بين المومسات ، ويعيش كواحدة منهن حتى يكبر وينقطع عنه الناس .

* * *

وأقبل أولاد الأغنياء ومتوسطى الحال على مراقص وجه البركة وحاناتها . وأنفقوا ثرواتهم وصحتهم ومستقبلهم ، وأضحوا فقراء مرضى . لقد خربت بيوت ، وبيعت ضياع وقصور، وبددت أثمانها على المومسات وموائد الخمر والميسر . وقد هالت هذه الحالة بعض المفكرين والمصلحين ، فرفعوا صوتهم بالشكوى وطالبوا الحكومة بالعلاج . ولكن الامتيازات الأجنبية كانت تقيد الحكومات، وتمنعها من الإقدام على أى إصلاح .

ومن الأدباء الذين عرضوا بوجه البركة ، حافظ إبراهيم فى قوله مخاطباً الأزبكية :

كَمْ وَارِثٍ غَضٌّ الشَّبابِ رَمَيْتِهِ
بِغَرامِ راقِصَةٍ وَحُبٍّ هَلُوكِ
أَلْبَسْتِهِ الثَّوْبَيْنِ فى حالَيْهِمَا
تِيهَ الغَنِيِّ وَذِلَّةَ المَفْلُوكِ

وقال :

يَقُولُونَ فِى النَّشْءِ خَيْرٌ لَنَا وَلَلنَّشْءُ شَرٌّ مِنَ الأَجْنَبِى
أَفِى الأَزْبَكِيَّةِ مَثْوَى البَنِينَ وَبَيْنَ المساجِدِ مَثْوَى الأَبِ؟

* * *

وكانت مقاهى وجه البركة مجمعاً للنصـــابين والمحتالين الذين يتصيدون أهل الريف القادمين إلى القاهرة ويبتزون أموالهم فى غير شفقة ولا رحمة .

كما كان سماسرة البورصة يتخـــذون فى هذه المقاهى أماكنهم وينصبون شباكهم ، فيقع فيهـا المغفلون ، وسرعان ما تتبدد ثرواتهم ويصبحون فقراء معدمين .

يجلس السمسار إلى من يتوسم فيـه الغنى وما يزال يزين له المغامرات فى البورصة ، ويمنيه بالأرباح الوفيرة ، ويذكر له أن المغامرات خلقت أبطال السياسة والحروب والمال ، ويضرب له بعض الشواهد والأمثال . يقول السمسار : أما المخاطرة فهى لاصقة بالإنسان فى كل حركة وسكون ، وملازمة لعمله فى كل زمان ومكان .. ومن أراد أن يتوقى الأخطار ويسـلم من المخاوف فلا يباشر عملا من الأعمال ، والأولى له أن يترك هذا العالم إلى سواه .

ويقول لضحيته : وأنا أضمن لك الربح ما دمت آخذاً برأيى ، ولا تستمر فى هذا الانكماش والحذر اللذين هما علة تأخر المصريين ، واجعل دأبك النشـاط والإقدام اللذين هما سبب تقدم الغربيين .

وهكذا حتى يلين الضحية ويقع فى الفخ .

* * *

ولمـا كانت المحكمة المختلطة تقع فى ميدان المتبـــة ، فقد انتشر وكلاء المحامين الأجانب فى المقاهى الواقعة بتلك الناحية ، يصطادون أرباب القضـايا من المصريين .

يقول صاحب القضية : من لي بدخول القضية فى المحاكم المختلطة وأنا رجل من رعايا الحكومه ؟ ومن لى بمحام أجنبي وأنت تعلم ما يلزم لمثله من المبلغ الجسيم فى « مقدم الأتعاب » .

فيرد الوكيل قائلا : رفع القضية إلى المحاكم المختلطة سهل هين . ويكون بالتنازل عنها لأحد الأجانب . وأما المحامى الأجنبى فالوكيل يتعهد بإقناع المحامى الذى يشتغل معه ليقبل القضية من غير أن يلتفت إلى مقدم الأتعاب . وإنما يتفق مع صاحب القضية على مناصفته فيما تحكم به المحكمة من الأموال .

ويقول الوكيل : إن الأجنبي الذى تتنازل له عن القضية حاضر فى مكتب المحامى ، تحت يده لتسخيره فى مثل هذه القضايا . وما على المصرى سوى دفع النفقات والرسوم .

فإذا أبدى المصرى ارتيابه فى نجاح قضيته ، قال له الوكيل « لو كنت تعلم مهارة المحامى الذى أعمل معه ، وما له من علو الشأن فى المحاكم المختلطة ، ومن الاتصال بقناصل الدول ، لما ترددت فى أن تعهد إليه بقضيتك » .

وهكذا ينمق الوكيل الكلام ، وينصب الشراك ليظفر بهذا الصيد الثمين . ومن أين يضمن المصري أن يحصل على حقه وقد تنازل عن دعواه لشخص أجنبي لا تربطه به صلة قريبة أو بعيدة ؟ وبمثل هذه الطرق من النصب والاحتيال ، استطاع بعض الأجانب أن يجمعوا ثروات طائلة .

* * *

وكان الناس يتندرون بما يقع من أعيان الأرياف فى وجه البركة . وربما

اخترعوا نوادر وفكاهات وألصقوهـا بهم . روى عن أحد العمد أنه دخل مطعماً يمـلكه أجنبي ليتناول طعام العشاء ، وكان معه بعض أصدقائه .

فلما جلس إلى المائدة ، وأحضر الطعام ، أخذ يمد يده إلى صحن غيره ويعيد إليه فضلة ما يأكله . وقد سقطت منه قطعة لحم على الأرض ، فقام وتناولها بيده ووضعها في الشوكة وأكلها دون أن ينظفها مما علق بها من تراب . ولوث المائدة بالمرق والطبيخ . وكان يمسح يده في غطاء المـائدة . وكسر بعض الأكواب والأطباق . ووضع بعض الفاكهة في جيبه ، وشرب ماء الغسيل . ولم يكتف بهذا بل أخـــذ يغازل السيدات الحاضرات ويغامزهن ، فقمن مستقبحات مستنكرات . ونهض كثير من المترددين على المحل اشمئزازاً من هذه الأفاعيل .

وبعد تناول العشـاء شرع العمدة يشرب ثم يشرب . وقام يتمايل ويتثنى ويتثاءب ويتمطى .

ولعل في هذه الصورة مبالغات ، ولـكنها لا تخلو من حقائق .

* * *

وفي كل حانة من حانات وجه البركة مغنية وراقصة . فإذا غنت المغنية سكتت الراقصة . ويحدث العكس .

وكثيراً ما كان الشجار يقوم بين جمهور الحاضرين ، بسـبب اختلاف أمزجتهم . فنهم من يفضل الرقص ، ومنهم من يحب الغناء . وسرعان ما يشتبك الفريقان في معركة حامية تسـتخدم فيها المقاعد والعصى . ولذلك وضع أصحاب الحانات نظاما يكفل إرضاء الحاضرين على اختلاف نزعاتهم . فوقت للغنـاء ، يعقبه وقت للرقص ، وبعده غناء وهكذا .

فإذا جاء دور الرقص ضجت الغوغاء ، واشتدت الضوضاء ، وامتدت الأعناق بالصفير والنعيق ، واشتغلت الأكف بالتصفيق ، ترحيباً وتأهيلا ، وتكبيراً وتهليلا .

تقوم الراقصة على المنصة ، ولاتلبث أن تشير إلى بعض الجلوس ، فيصيح هذا طالباً من الساقى أن يحضر زجاجات الخمر ويفتحها ويقدمها للراقصة . فإذا شربت ودبت الخمر فى أوصالها ، جدت فى لعبها ودورانها . واشتدت فى قفزها وجولانها . وهزت بطنها وصدرها ، ولعبت عيونها ، ووقف الساقى أمامها ينازلها وتنازله ، ويغازلها وتغازله ، ويراقصها وتراقصه ، ويقارصها وتقارصه . وهى ترسل على الحاضرين أموالا مثيرة ، وتخاطبهم بعبارات مكشوفة . فتفتر لها الثغور ، وتنشرح الصدور ، وليس فى الناس إلا كل مستحسن مستزيد ، ومستملح مستعيد .

كم ذهبت بأموال ، وقتلت من أرواح . وكم أضاعت شرفا ، وأزالت مجداً ، وأذلت رقابا ، وأفسدت حكاما . وكم فرقت بين المرء وزوجته ، وولدت العقوق بين الوالد وولده ، وألهبت العداوة بين الأخ وأخيه ، وكم خربت بيوتا عامرة ، ودنست أنسابا طاهرة .

وكان جل الذين يحضرون فى هذه المراقص من الأعيان والكبراء والأمراء واشتهرت راقصة اسمها « سميرة » ولم تكن على درجة كبيرة من الجمال ، ولكنها كانت تجيد الرقص إجادة تامة وتهز أردافها ونهودها ، وتتمايل بشكل مهيج للأعصاب . فأقبل على مرقصها أبناء الأغنياء وأهل الوجاهة والثراء .

فهذا أحد أبناء الأمراء ، مات أبوه وترك له أموالا جمة ، فالتف حوله قرناء

السوء من أهل البطالة والفراغ ، فأنفق ثروته فى أمكنة التجارة وبخاصة على سميرة ، حتى إذا نضب معين أمواله هجرته إلى غيره .

وهذا الجالس الذى يفتل شاربيه ويحملق بعينيه ، ويغمز بحاجبيه ، من أبناء الكبراء . ماتت أمه فورث عنها أموالا طائلة، ولم يمض على موتها أيام حتى أوقعه سوء طالعه فى مخالب سميرة فهو لا يصبر عنها ، ولا ينقطع عن المجىء إليها فى كل ليلة . وهي تسلبه كل ما تصل إليه يده من خفيف وثقيل . وما كان لأمه من حلى وجواهر .

وهذا حاكم من كبار الحكام فى الأرياف ، وقع فى شراك هذه الراقصة ، فكادت لفظاعة أعمالها معه أن تسلخه من شرفه ، وتسقطه عن منصبه ، وهو مع ذلك لا يسلوها ولا يزهد فيها . وليس له فى مدة إقامته بالقاهرة غير بيتها مأوى ، ومرقصها ملهى . فإذا عاد إلى مقر وظيفته ، عاد بغير عقله . فيسعى فى استغواء العمد والأعيان لإقامة الولائم والحفلات ، واستئجار هذه الراقصة لإحياء لياليها .

وكانت سميرة بعد أن تفرغ من رقصها ، تنزل لإصلاح ما فسد من حالها . ثم تسير متكسرة بين الجموع وهم يرمقونها رمق الشهوة . ويتطلعون إليها تطلع الحيوانات البهيمية . فيعد لها كل فريق كرسياً بجانبه ، ويتسابقون إلى دعوتها . وهى لاتعبأ ولا تلتفت ، وتستمر فى تكسرها وتثنيها ، حتى تصل إلى صاحب المرقص فتقف معه ملاعبة مداعبة ، ممازحة مضاحكة .

كانت سميرة تعيش فى كنف أجنبى متمتع بحماية بلاده ، وبذلك ظلت فى مأمن من المحاكمة والعقاب ، بالرغم من ارتكابها ما يخالف قوانين البلاد ، فى فسقها وفجورها ، ورقصها عارية . وهذا الأجنبى له أجر على ذلك يتناوله منها كل ليلة .

وتظل سميرة تتقلب بين الجالسين وتتنقل ، وتتجول بين الصفوف وتتحول . وتروح إلى صاحب الحان وتغدو ، وتختفى آونة ثم تبدو . منطلقة اللسان بالشتم والسب ، منبسطة اليد بالنهب والسلب ، ممتدة الكف باللطم والضرب ، دائبة فى السكب والشرب . وهى فى تنقلها تتجهم ، وأخرى تتبسم . وتنبسط حيناً وتنقبض ، وترضى ساعة ثم تمتعض . وتعامل كل إنسان بما يلائمه ، وتجرى معه على ما يوائمه . فتضل الألباب والنهى ، ويقع الجميع فى أسر الهوى . وآية حبها وميلها أن تصفع الصب بنعلها . فإذا أفرطت فى ضرب شخص بالنعال ، كان ذلك علامة الرضى وبلوغ الآمال بدنو ساعة الوصال . وطفق المضروب يفاخر أصحابه وخلانه ، ويباهى أنداده وأقرانه ، كالظافر فى ساحة الطعان والضراب ، والفائز بالغنائم والأسلاب . فيغالى فى إظهار الابتهاج والائتناس ، وتنبسط يده فى الكيس ، ويدها فى الكاس . والغلام على رأسه بالآنية ، يصب لها زجاجة كل ثانية . وهى تصب الكؤوس فى الهاوية ، كأن حلقها قناة ، وكأن الساق ساقية .

جلس إليها أحد العمد ذات ليلة ، وأنفق عليها مبلغاً طائلا . ثم أخرج ساعته من جيبه ليرى الوقت . فخطفتها منه ونظرت فيها ، ثم قالت إن موعد الانصراف قد حان . وأخذت الساعة وانطلقت مسرعة : ونهض العمدة المسكين يجرى وراءها وهو يتعثر فى مشيته ، حتى أدركها واقفة عند صاحب الحان . فوقف بين يديها يسألها أن تبر بوعدها وتذهب معه فى تلك الليلة . فأعرضت عنه وأمعنت فى الإعراض ، فأخرج حافظة نقوده ليغريها ، فدفعته على الأرض برجلها ، فسقطت منه الحافظة وتناثر ما فيها من نقود . وهنا دخل الأجنبي الذى يحمى هذه الراقصة ، وانهال على العمدة لطما وركلا ، وتناول النقود المبعثرة ، وأخذها

وانصرف تتبعه سميرة . وخرج العمدة وقد خسر ساعته وماله طالبـــاً النجاة لنفســه .

* * *

ويعتبر حى وجه البركة من أكثر أحياء القاهرة ازدحاما بالسكان . وقد أورد على مبارك فى خططه إحصــائية عن عدد المقاهى والخمارات ومحلات بيع البوظة . فـكان فى وجـهِ البركة ٢٥٢ مقهى ، ٢٢٨ خمارة ، ١٥ محلا لبيع البوظة . وهذا يعادل ما كان فى أحيـاء القاهرة جميعها فى ذلك الوقت (سنة ١٨٨٠) وكان بهذا الحى ٨٣٧٨ مسكنا ، وبلغ ما حصل منه من ضرائب سنة ١٨٧٢ مبلغ ٦٧٢٩٢٧ وهى ضعف المبالغ المتحصلة من بعض الأقسام .

* * *

وفى سنة ١٩٤٩ صدر أمر بإلغاء البغاء . فأغلقت أمـكنة الدعارة ، وجـدت الحـكومة فى مطاردة القوادين والبلطجية الذين يســـكنون فى أزقة شارع كلوت بك . وخلت المساكن والدكاكين التى شغلتها النساء الساقطات من قديم الزمن . وحل فيها بعض أصحاب الصناعات كالنجارين والحدادين ، وصــانعى الحقائب والأحذية ، وباعة القوارير الفارغة وغيرهم .

أما الحانات فما زالت موجودة كما كانت من قبل ، وكذلك المطاعم . ونظراً لقرب حى وجه البركة من محطة السكك الحديدية ، ومحطات السيارات العامة التى تسافر إلى الأقاليم ، نظراً لذلك فقد ازدحم بالفنادق حتى لا يضــارعه حى آخر فى العاصمة .

وحى وجه البركة هو قلب مدينة القاهرة . وتخرج منه السيارات العامة حاملة

الركاب إلى جميع أنحـاء المدينة . وبه مكتب البريد العام وإدارة مصلحة البريد ، والمركز العام للمطافى . وبه أكبر المحلات لتجارة القطاعى .

* * *

والحق يقال إن حديقة الأزبكية قبل أن يهدم سورها، لم يكن يشعر بوجودها أحد . فكانت تدخلها قلة من الناس . فإذا جاءت الساعة السـادسة أخليت وأغلقت أبوابها . أما بعد هدم أسـوارها فإنها أضحت ملجأ للناس فى وقت الصيف . وقامت بها مراقص ومقاهى فخمة . وفى الأعياد يجتمع فيهـا أصحاب الألعاب وأرباب الملاهى ويعرضون ألعابهم المختلفة ويظل السهر فيها طوال الليل .

* * *

أما المعاهد العلمية بوجه البركة فهى :

١ — مدرستان أنشأتهما الحملة الفرنسية لتعليم أبناء الفرنسيين .

٢ — مدرسـة للطب كانت فى أبى زعبل فى عهد محمد على ، ثم نقلهـا إلى الأزبكية .

٣ — مدرسة تجهيزية كانت فى عهد عباس الأول فى محل فندق شـبرد الذى احترق وهدم سنة ١٩٥٢ .

٤ — مدرسة الألسن فى عهد إسماعيل باشا .

٥ — مدرسة الأقباط الابتدائية وقد سبق الكلام عليها .

٦ — مدرسة الأقباط الثانوية ، وقد سبق الكلام عليها أيضاً .

٧ — مدرسة الراهبات الفرنسسكان بشارع الجامع الأحمر .

٨ — مدرسة الأمريكان للبنين (ابتدائى — ثانوى)

٩ — « « للبنات (« «)

١٠ — مدرسة ليلية بشارع الجامع الأحمر .



الفنون الجميلة فى وجه البركة

— ١ —

[التمثيل]

من أنواع المدنية الحديثة التى جاءت بها الحملة الفرنسية ، التمثيل . فكان بين جنود الحملة ، بعض رجال من الممثلين والموسيقيين . وقد أنشأ نابليون مسرحا ضخما بوجه البركة مثلت فيه الروايات باللغة الفرنسية ترفيهاً عن الجنود وتسلية لهم. ولكن هذا المسرح دمر فى خلال ثورة سنة ١٧٩٩ ، فأعاد الجنرال مينو بناءه من جديد ، وأطلق عليه « مسرح الجمهورية » وكان موقعه بالقرب من شارع غيط النوبى الآن . وقد زال عقب جلاء الفرنسيين ، ولم يعرف المصريون شيئاً عن التمثيل الحديث .

وبقى الأمر على ذلك حتى أنشأ الخديو إسماعيل دار الأوبرا سنة ١٨٦٩ واستقدم لها الممثلين من أوروبا ، ومثلت فيها رواية عايدة باللغة الفرنسية.

ثم جاء إلى مصر بعض السوريين نذكر منهم عبدالله الخياط ، واشتغلوا بالتمثيل فى دار الأوبرا . ولكنهم توقفوا عن العمل ، وذلك لأن دار الأوبرا أغلقت أبوابها منذ أن عزل إسماعيل ، وبقيت مغلقة إلى سنة ١٨٨٢ .

ففى سنة ١٨٨٢ جاء إلى القاهرة سورى اسمه « سليمان القرداحى » مع فرقه تمثيلية . وضم إليه الشيخ سلامه حجازى ، فسمحت له الحكومة بالتمثيل فى دار

الأوبرا . إلا أن القرداحى ما كاد يبدأ العمل حتى قامت الحركة العرابية واضطربت الأحوال فى العاصمة ، فاضطر إلى الرجوع إلى سوريا . وفى سنة ١٨٨٤ فكر القرداحى فى العودة إلى مصر . وجاء فعلا واستأنف نشاطه الفنى من جديد . وضم إليه سلامة حجازي مرة أخرى ، وممثلة سورية اسمها « ليلى » فكانت الأوبرا تغص بالمتفرجين لكثرة الزحام رغبة فى سماع الغناء .

وقد أعجب المصريون بالتمثيل ، وأقبلوا على الاشتغال به ، ولكنهم لم يفكروا فى اتخاذه وسيلة للكسب ، ولا مصدراً للعيش . فكانت فى كثير من المدارس فرق تمثيلية مكونة من الطلبة .

وجاء إلى القاهرة حوالى سنة ١٨٩٠ ممثل سورى هو أبو خليل القبانى ومعه إسكندر فرح . فاشتغلت فرقة القبانى بضع سنوات وكان يمثل فى مسرح أفرنجى اسمه « بوليتياما » ثم انفصل فرح عن القبانى وألف فرقة جديدة ، وأنشأ مسرحاً خاصاً به فى شارع عبدالعزيز فى موضع سينما أوليمبيا الآن ، وأطلق عليه اسم « دار التشخيص العربى » .

ولما كان فرح فقيراً ، فقد راعى البساطة المتناهية فى بناء مسرحه وتأثيثه . ولا يخفى أن الاشتغال بالتمثيل فى سنة ١٨٩٠ كان يختلف عن الاشتغال به فى أيام الخياط والقرداحى . وذلك لأن هذين الرجلين اعتمدا إلى حد كبير على إعانات سخية من الخديو وبعض الأمراء والوجهاء . وكان يهمهما إرضاء هذه الطبقة الإرستقراطية ، وإدخال السرور عليها وتمثيل ما يعجبها وينال رضاها . أما عامة الشعب فلم يعمل لها حساب ، وقليل جداً من كان يذهب من العامة إلى دار الأوبرا لمشاهدة التمثيل .

أما فرقة القبانى وفرح وغيرهما ، فقد اتجهت اتجاها شعبيا ، واعتمدت فى تدعيم حياتها ، والحصول على موارد رزقها على الجمهور ، ولذلك اجتهدت فى إرضائه ، وإغرائه بالحضور . وكان لابد لها فى هذه الحالة من أن تلفت نظر العامة، وتسترعى انتباههم ، وذلك بتمثيل الروايات المضحكة ، أو إنهاء الرواية بفصل مضحك . ووجدوا أن المصريين يعشقون الصوت المطرب ، فأدخلوا الغناء فى التمثيل . وبهذا انفتح أمام المغنين باب جديد ، وهو العمل فى المسارح ومزاولة التمثيل الغنائى ، وكانوا قبل ذلك مقتصرين على الغناء فى المقاهى والحانات .

ثم أخذت الفرق ترتقى يوما بعد يوم نتيجة لارتقاء أذواق الجمهور واشتهرت فرقة إسكندر فرح لوجود المطرب المشهور الشيخ سلامة حجازى ضمن أعضائها ، وارتفع مستوى الفرقة والمسرح والشاهدين . فكان التقدم عاما .

ومازال سلامة حجازى عاملا فى فرقة إسكندر فرح إلى سنة ١٩٠٤ .

فحينئذ فكر سلامة فى أن ينفصل وينشىء مسرحا خاصاً به . فاشترى فى سنة ١٩٠٥ دار تياترو « فردى » وكان بوجه البركة ، بشارع المهدى ، وسماه « دار التشخيص العربى » ، فلقى من الأمة إقبالا شجعه على السير فى سبيل التحسن والإتقان حتى بلغ شأوا عظيما .

أما فرح فإنه كون فرقة جديدة ، لأن فرقته القديمة فضلت أن تعمل مع الشيخ سلامة . وقرر أن يكون تمثيله خاليا من الغناء .

وكان الاعتقاد السائد فى الأذهان فى ذلك الوقت ، أن التمثيل لا يعد تمثيلا إلا إذا تخللته أدوار غنائية . ومنشأ هذه العقيدة أن النقاش مؤسس التمثيل العربى ، رأى أن يضمن حضور أكبر عدد ممكن من الجمهور إلى مسرحه ليزداد كسبه .

فمزج التمثيل بالغناء ليضرب عصفورين بحجر . فمن الناس من يحضر لسماع الغناء، ومنهم من يحضر لمشاهدة التمثيل . فنشأ الجمهور على هذه العادة . فلما عدل فرح عن هذه الطريقة لم يقبل عليه أحد ، وتحول الناس إلى مسرح سلامه حجازى . فاضطر فرح إلى حل فرقته وإغلاق مسرحه .

وما زالت المسارح تكثر ، والتمثيل يرق ، حتى ظهرت السينما فتحولت إليها الجماهير . أما دار الأوبرا فقد قل نشاطها، وارتفعت أسعار الدخول فيها حتى اقتصر الحضور فيها على الطبقات الغنية . وكانت تستقدم بعض الفرق الأجنبية لتمثيل بعض الروايات

وبعد قيام ثورة الجيش سنة ١٩٥٢ خفضت أسعار الدخول حتى أصبحت فى متناول العامة وسواد الشعب . وعنى أولو الأمر بتأليف تمثيليات شعبية . وكثر عدد الروايات التى تمثل فيها . وبهـــذه الطريقة تساهم دار الأوبرا فى نشر الوعى الوطنى والفنى والنهوض بفن التمثيل .

وما زال فى حديقة الأزبكية مسرح للتمثيل ، يصادف رواجا عظيما .

ومنذ سنة ١٩١٤ بعد قيام الحرب العالمية الأولى ، أخذ أصحاب المسارح من أمثال عزيز عيد ، وجورج أبيض ، والكسار ، والريحانى ينتقلون من وجه البركة إلى شارع قريب منها ، قدر له أن يكون شارع المسارح ودور السينما فى مصر ، أعنى به شارع عماد الدين .

وكانت بعض الجمعيات الخيرية تقيم حفلات تمثيلية فى حديقة الأزبكية .

— ٢ —

السينما

شاهد سكان القاهرة السينما لأول مرة سنة ١٩٠٦ فى مطعم ومقهى «سانتي» بجانب الباب الشرقى لحديقة الأزبكية . وكان هذا المقهى من أفخم مقاهى العاصمة فى ذلك الوقت . وقد أحدثت أول أشرطة عرضت دهشة كبرى ، وأخذ الناس يتسابقون إلى محل «سانتي» لمشاهدة هذه العجيبة الجديدة . وكانوا فى أول الأمر يظنون أنها كالسفيرة العزيزة التى يطوف بها بعض الناس فى الشوارع . ثم أخذوا يفهمون رويداً رويداً حقيقة أمرها . وكانت الأشرطة التى تعرض قصيرة ، وتمثل مناظر مختلفة لا رابطة بينها ولا صلة . ومن الأشرطة التى عرضت فى أول الأمر : منظر ميدان الأوبرا فى باريس ، ومنظر بستانى فى باريس يرش الحديقة بالماء ويسوى الزرع وينظف ممرات الحديقة . ومنظر ملك إيطاليا وملكتها فى إحــــدى رحلاتهما . ومنظر انصراف العمال من أحد المصانع .

ولما رأى أصحاب المقاهى من الأجانب أن «سانتي» ربح من السينما مبالغ طائلة ، حذوا حذوه وقلدوه ، وأحضروا آلات العرض وما يلزم من الأشرطة . وكان الناس يجلسون على جانبي الشاشة لأن المناظر كانت ترى من الناحيتين . وكان سعر الحضور يتراوح بين ثلاثة قروش وعشرة . ويحكمون قاعة العرض بالورق الأحمر . وكان المشتغلون بالسينما فى ذلك التاريخ من الأجانب ، وظلوا محتكرين هذا العمل مدة من الزمن .

وفى نفس الوقت الذى كانت تعرض فيه السينما فى قهوة سانتى ، نشأت دار أخرى بشارع ٢٦ يوليو « مكان محلات شملا » حاليا . وكان اسمها « سينما باتى » ونشأت دار أخرى فى موضع مستشفى صيدناوى حاليا، وكان اسمها « سينما سبلندد » وفى سنة ١٩١٢ نشأت سينما أوليمبيا بشارع عبد العزيز . وبعد ذلك بأعوام نشأت سينما رمسيس .

ومنذ سنة ١٩٠٩ بدأ شارع عماد الدين يحتل مكانه فى عالم السينما : ولما بنى الخديو عباس عماراته الشاهقة ، تتابع البناء فى ذلك الشارع ، وشارع ٢٦ يوليو . وقامت دور السينما الفخمة التى ما نزال نشاهدها حتى الآن .

— ٣ —

الغناء

كان المغنى الذى يريد أن يكسب شهرة واسعة، يتحتم عليه أن يعمل فى مقاهى وجه البركة ومراقصها مدة من الزمن . وقد ظل هذا الاعتبار مأخوذا به حتى ظهر الحاكى ، ثم الإذاعة .

وقد بدأت أم كلثوم حياتها الغنائية فى مقهى سانتى سنة ١٩٢٢ وظلت تغنى دون إنقطاع إلى سنة ١٩٢٤ . كما أن محمد عبد الوهاب غنى فى نفس المقهى المتقدم ذكره من سنة ١٩٢٢ إلى سنة ١٩٢٤ .

ولما كان المغنون الذين ظهروا واشتغلوا بوجه البركة لا يحصيهم العد ، ومنهم الشيخ سلامة حجازى المتقدم ذكره والمتوفى سنة ١٩١٧، والشيخ يوسف المنيلاوى المتوفى سنة ١٩١٧ . ، وعبده الحامولى المتوفى سنة ١٩٠١ ، فقد رأيت أن أكتفى بالكلام على الحامولى نظراً لما أسداه من فضل على الغناء المصرى فى العصر الحديث.

ولد الحامولى بمدينة طنطا سنة ١٨٤٥ ، وكان والده يتاجر فى البن. وقد حدث نزاع بين الوالد وأولاده . فخرج عبده مع أخيه الأكبر هاربين . وما زالا يجدان فى السير حتى أدركهما الجوع والعطش . فرآهما المعلم شعبان وكان يشتغل بالغناء والضرب على القانون بمدينة طنطا . وكان قد سبق له أن سمع صوت الصبى عبده الحامولى وأعجب به كل الإعجاب ، وتوقع له مستقبلا حسنا . فلما رآه مع أخيه سائرين فى الخلاء هربا من والدهما، نصحهما بالعودة معه إلى المدينة ، وفعلا رجعا معه.

وفكر المعلم شعبان في أن يستغل عبده في الغناء حتى ينتفع من ذلك . فصحبه وقدم به إلى العاصمة . وفي مقهى معروف بوجه البركة في ذلك العهد ، وهو مقهى عثمان أغا وكان يقع بحديقة الأزبكية، استقر المعلم شعبان مع الصبي عبده الحامولي . فأقبل الناس على سماع هذا الصوت الرخيم من كل صوب ، وكثرت أرباح المعلم شعبان . فخاف أن يتركه الصبي ، وكان بعض الناس قد فكر في استمالته إلى جانبه وإغرائه بترك شعبان . فعرض المعلم على الصبي أن يزوجه بنتـــــه ، فقبل عبده وتم الزواج. ولكن شعبان اعتقد أنه يستطيع بعد هذا الزواج أن يذل زوج بنته ، ويتحكم فيه كيف شاء ويستأثر بدخله كله . فلم تطب نفس الحامولي لذلك ، ولكنه انتظر وصبر حتى يحين الوقت المناسب لينفصل عن المعلم شعبان .

وسرعان ما حانت الفرصة. فقد كان في القاهرة رجل ذائع الصيت في فن الغناء ، اسمه « المقدم » وتصادف أن مر بمقهى عثمان أغا ، وجلس ليستريح قليلا ويشرب فنجالا من القهوة . فسمع عبده يغني فأعجب به ، وسعى جهده ليضمه إليه ، ويلحقه بتخته . فلم يجد صعوبة في ذلك، بل وجد ترحيباً ، ودون تردد انفصل عبده عن المعلم شعبان ، وطلق زوجته حتى تنقطع العلاقة بينهما بصفة نهائية . وأخذ منذ ذلك الوقت يعمل مع المقدم . وكان الغناء المصري يجري على طريقة قديمة جدا هي طريقة شاكر الحلبي التي سبق الكلام عليها في حديثنا عن وجه البركة في العصر العثماني .

ولم يرض الحامولي عن هذه الطريقة كل الرضى . فأخذ يدخل عليها التحسين تلو التحسين حتى وصل بها إلى درجة محمودة . فاقتبس من الموسيقى التركية نغمات لم يكن للمصريين بها علم من قبل ، مثل النهاوند ، والعجم ، والحجاز كار وغيرها . وخلط ما أخذه من الأتراك بما ورثه عن المصريين. وبذلك ابتكر شيئاً جديداً كان له وقع عظيم في النفوس .

وظهرت فى وجه البركة مغنيــة اسمها « ألمز » حازت شهرة عظيمة المدى . فتزوجها الحامولى ومنعها من الغناء .

وقد أعجب به الخديو إسماعيل وألحقه بحاشيته وجعله مطربه الخاص . وبعد أن خلع إسماعيل ، عاد الحــامولى إلى مغانى وجه البركة ومراقصها ، يطرب الجماهير بصوته الملائكى الحنون :

* * *

وكثر عدد العوالم فى جهات الأزبكية منذ عصر إسماعيل . وزاد عدد المغنين والمغنيات . وتنافس أصحاب المقاهي والحانات فى اســتخدام أشهر المطربين . وكان هذا مما يغرى الناس بالسهر والسكر والعربدة ، وكثيرا ما كان الغنــاء محركا للشهوات ، ودافعاً على ارتكاب الموبقات .

وظلت ناحية وجه البركة عامرة بالرقص والغنـــــاء إلى أن ظهرت السينما والإذاعة . فكان هذا سبباً فى القضاء على سوق الغناء فى الأزبكية قضاء تاما .

كيف تشبه وجوه الملحـــدين ! !

الخالد الذكر : مصطفى عبد الرازق : يحدثنا عن

الشيخ محمد عبده

تلميذ

السيد جمال الدين الأفغاني

يقول رحمه الله : إن الشيخ محمد عبده مصلح جرىء ، حاول الهدم والبناء فى أقدس هيكل عند البشر ، فيما يعتبره الناس دينا .

أرسل صيحته فى الأزهر تدوى بين شيوخ إن لم يكونوا يومئذ ـ هيئة كبار علماء ـ فلعلهم لم يكونوا دون هؤلاء جموداً .

ولم يبال الأستاذ بما لقى من الأذى ، وقد لقى من الأذى كثيراً .

* * *

وأشهد لقد كان جمال الشيخ محمد عبده من الجنود التى سخرها الله لعبقريته ، وكان صوته العذب المؤثر من جنود عبقريته أيضاً .

ويستطرد قائلا :

كنت طالباً من صغار الطلاب أيام جاء الشيخ محمد عبده إلى الأزهر ، وكان أساتذتنا ، عفى الله عنهم ، لا يفتــأون يذمون لنا الشيخ ويمثلونه خطراً على الدين وأهله دائما ، فتتأثر بذلك عقولنا الطفلة ، وكنت أفر بديني من أن ألقى الأستاذ أو أستمع لدروسه مع أنه صديق لوالدى .

وحضرت درسه مرة لأشهد كيف تشبه وجـــوه الملحدين وتشبه معها عقولهم وقلوبهم .

فلما رأيت الرجل بالرواق العباسي وسمعته يفسر كتاب الله قلت مذ ذلك اليوم:
« اللهم إن كان هذا إلحاداً فأنا أول الملحدين ! ! »

* * *

ويقول الأستاذ عبدالرازق :

« كان (محمد عبده) يرى أن الشر لافائدة منه مطلقاً ، وأن التسامح والعفو عن كل شيء وعن كل شخص هما أحسن مايعالج به السوء ، ويفيد فى إصلاح مافعله».

ويختتم رسالته قائلا :

« ولو شاء الشيخ محمد عبده ، لكان ذا غنى ولترك لأرملته المريضة ثروة تكفل لها من بعده رفه الشيخوخة وتصونها من ذلة العسر ، ولكن الأستاذ الامام كان أكبر نفساً وأشد احتقاراً للدنيا من أن يبذل جهده فى جمع المال ، فعاش عظيما فقيراً ، ومات فقيراً عظيما » .

هذا ما كتبه العظماء عن محمد عبده وأستاذه الأفغانى . ترى هل قرأت كفاح الاثنين معاً فى صراعهما ؟

إن كنت قد قرأته فأنت لا تبخل على عالمين من وقتك فى قراءة باكورة كتبهما . وإن لم تكن فلا تتردد لأنك لن تخسر مالك ولا وقتك إذا قرأت : —

الحكيم الترمذى يحدثنا عن (القلب) فى الاسلام :ـ

إنمــا يسمى القلب قلبا لسرعة تقلبه . قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، « إنما مثل القلب كمثل ريشة فى الفلاة من الأرض » فأخبر عليه السلام طرفا من قدرة الله وشيئاً من لطفه لعبده الضعيف بتثبيت قلبه على الإيمان وإرسائه على الحق بسرعة تقلبه كيلا يرتفع عن الهدى بحول الله وقوته ، فالعاقل من لا يضيف فعل القلب إلى نفسه إلا على مقدار ما يليق بالعبودية ، ويسـكت عما لا يعنيه ، فان له من وراء ذلك اشتغالا عن الفضول بما لا يعنيه . ومن انهدم بناء توحيده وأساس إيمانه وأرض معرفته ، فمن غيره يبنيه ؟

« بين رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أن مقامات المؤمنين على قدر مراتبهم إذ قيد الاحسان بالرؤية . ومعدن الرؤية هو الفؤاد ، قال تعالى : « ماَ كَـذَبَ الفُـؤَادُ ماَ رَأى » والفؤاد مشتقّ من الفائدة لأنه يري من الله عز وجل فوائد حبه ، فيستفيد الفؤاد بالرؤية ويتلذذ القلب بالعلم ، وإنه ما لم ير الفؤاد لم ينتفع القلب بالعلم . ألا ترى أن الأعمى لاينفعه علمه شيئاً فى وقت الشهادة إذا احتاج إلى أدائها لأنه محجوب عن الرؤية ، فعلمه فى الحقيقة علم ، لـكنه لم يتأكد سـلطانه بجرح القاضى شهادته بالعمى وإن كان عدلا !! »

اقرأ هذا البحث الممتع عن القلب فى الإسلام في كتابنا الجديد :

بيان الفرق

بين

الصدر والقلب والفؤاد واللب

لأبي عبد الله محمد بن على
الحكيم الترمذي

الثمن ٣٠

أسرار وصور لم تنشر من تاريخ مصر الحديث

معركة القنال

كما شاهدتها ١٩٥١ - ١٩٥٢

تصوير رائع حقيقي لما جرى على ضفاف منطقة القناة من فظائع الاستعمار البريطاني ومعجزات البطولة والتضحية التي رفع رأس مصر بها بعض أبنائها البررة الخالد ذكرهم والحاضر مثلهم الأعلى في قلوب أبناء العروبة .

بقلم
صلاح الدين البستاني

ص
١٠

مؤلفات

الأستاذ محمد سيد كيلانى

١ — أثر التشيع فى الأدب العربى .

٢ — الحروب الصليبية وأثرها فى الأدب فى مصر والشام .

٣ — ديوان البوصيرى ـ شرح وتحقيق ودراسة .

٤ — ديوان ابن زيدون ـ شرح وتحقيق ودراسة .

٥ — طيف الخيال للشريف المرتضى .

٦ — عين اليقين فى سيرة سيد المرسلين .

٧ — دروس فى تاريخ الإسلام جزآن .

٨ — التفصيل فى شرح وإعراب شواهد ابن عقيل .

٩ — فى ربوع الأزبكية .

تتشرف دار العرب للبستانى فتقدم لقرائها الكرام الروائع الأدبية التالية : —

الكواكبى
حياته وآراؤه

بقلم

الدكتور محمد أحمد خلف الله

الرجل الذى حارب الاستبداد ضد العرب والمسلمين فقال :

الحكومة المستبدة تكون طبعاً مستبدة فى كل فروعها من المستبد الأعظم إلى الشرطى إلى الفراش إلى كناس الشوارع ، ولا يكون كل صنف إلا من أسفل أهل طبقته أخلاقاً لأن الأسافل لا يهمهم جلب محبة الناس ، إنما غاية مسعاهم إكتساب ثقة المستبد فيهم بأنهم على شاكلته وأنصار لدولته ، وشرهون لأكل السقطات من ذبيحة الأمة ، وبهذا يأمنهم ويأمنونه فيشاركهم ويشاركونه » .

(الكواكبى)

فهرس



الناشر :

دار العرب

تأسست ١٩٠٠ م

للبستانى

٢٨ شارع الفجالة - القاهرة

ت ٥٦٠٢٥

الاقليم المصرى: ١٥ ص   ليره ونصف فى الاقليم ا